

سوليمرا

في حياة كلّ إنسان لحظةٌ لا تعودُ الحياةُ بعدها كما كانت.

مريم خالد يونس.



الكتاب: سليمان

النوع: رواية

المؤلف: مريم خالد يونس

التصحيح اللغوي: دعاء عطية

تصميم الغلاف: إبتهاال محمد

التنسيق الداخلي: أحمد جمال شاهين

الطبعة الأولى: 2026

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

الناشر: دار انطلاقة للنشر والتوزيع

مدير الدار: أحمد مكي

تليفون الدار: 01142340157

بريد: للتواصل: startpublishing372@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية؛ أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

سوليمرا

تأليف / مريم خالد يونس

يداعب وجنتيه نسيمُ الربيع، وتتسلَّل زهورُ النيلوفر إلى صدره،
تشقُّ طريقها في أعماقه؛ لتُفسح المجال لأطراف الحياة كي تعبت
بزوايا روحه، وتُقيم على أطلاله فلسفتها المعتادة.

تغلَّبت عليه أفكاره حتى أودت به إلى تلك المنطقة الرمادية، كلَّ
صباح ينهض وفي عينيه استسلامٌ يُشبه الرضا.

وكعادتها، تقتحم حياة غرفته في كلِّ فجرٍ كضابطٍ أنهى مهمته. في
البداية كان يفزع، ولكنه أصبح ينظر إلى هذا الاقتحام كلَّ صباح.

اتجهتْ إلى الستائر، ترفعها وتُتمتم بآية الكرسي وبعض الأدعية،
ويتسلَّل إليه صوتُ المذياع: «إذاعة القرآن الكريم من القاهرة»،
ورائحة المسك التي تلازمها. رفع ستائر جفونه يراقبها بهُيامٍ
يناسب حالته.

تنتقل من هنا إلى هناك كالفراشة، تُرتب أشياءه بحبٍّ مطلق.

قالت:

— سنأكل سوياً اليوم، لن أتركك تذهب، اليوم لنا.

قاطعها صوتٌ تسلَّل إلى الغرفة، فتعالت ضحكاتها تقول:

— لن يتغيَّر أبوك.

ذهبت باتجاه غرفة المعيشة، ورأته يجلس على كرسيه يحاول
إخفاء جريمته مبتسماً بارتباك:

— صباح الحياة يا كلَّ حياتي.

فأجابته حياة، وهي تلتقط وعاء الحلوى الذي يُخفيه خلف الكرسي،
مبتسمةً بخبث:

– صباح الخير يا فؤاد، أتتذكّر وعدك لي في المرّة السابقة بعدم تناول الحلوى مجدداً؟

قال سفيان:

– اتركه قليلاً يا حياة.

وقال فؤاد:

– أخبرها يا سفيان، لا حرج من المرح قليلاً.

قالت حياة:

– إذاً اجتمع الولد ووالده! حسناً، اتركوني وشأني.

قالت جملتها الأخيرة، وهي تضع وعاء الحلوى بين يدي فؤاد غاضبةً، وهمتّ باتجاه المطبخ، فضحك سفيان وأمسكها يُقبّل يديها قائلاً:

– كنت أمزح معك يا حياة.

قالت:

– لا تمزح مجدداً، وأخبرتكَ أن تناديني أُمّي. ولكن هذا ليس خطأك.

ورمقتْ فؤادَ بنظرة غاضبة، فضحك مسترسلاً:

– اتركها يا سفيان وتعال، أريد الحديث معك.

قال سفيان:

– لَبَيْكَ وسعديكَ يا مولاي!

ضربته حياة على كتفه من كثرة الضحك، وتركته وذهبت لتحضّر الفطور.

جلس سفيان أمام والده في صمت، وهو ينظر في عينيهِ بتركيزٍ وفضولٍ بالغٍ، مما أثار استهزاء فؤاد به:

— لا تستخدم عقلك معي، فلستُ أحدَ مرضاك يا أحمق.

فابتسم سفيان وقال:

— حسنًا، عمّ الحديث؟

قال فؤاد:

— طلبني أحد الأصدقاء القدامى في خدمةٍ، وتعلّم يا عزيزي، لا يستطيع والدُ الطبيب سفيان أن يُغلق بابهِ في وجه أحدٍ.

قال كلماته الأخيرة، وهو ينظر إليه بتفاخرٍ وتعالٍ، فضحك سفيان قائلاً:

— وما الخدمة يا والدَ الطبيب؟

قال فؤاد:

— ابنته في الأونة الأخيرة تصدر منها الكثير من غرائب الأفعال وعجائبها. فأراد أن يذهب بها إلى الطبيب النفسي، ولكنه يخاف انتشار الخبر، فطلب مساعدتي في التكتّم عن هذا الموضوع.

فعمد سفيان حاجبيه:

— لم أكن أعلم أن لديك أصدقاء مرضى يرون أن الذهاب إلى العلاج النفسي فضيحةٌ تستدعي التكتّم.

وأردف بعد بُرهة:

— على كلّ، اجعلها تأتي إلى العيادة مساءً، سأنتهي من العمل في المستشفى وأذهبُ إلى العيادة في السابعة.

كان فؤاد يتابع تعابير وجه سفيان أثناء الحديث، في ترقّبٍ لردّ فعله القادم:

— سألجها هنا!

نظر إليه سفيان بتعجّب.

فأردف:

— في منزلنا! ستأتي ريم إلى هنا، حيث تتلقّى جلسّتها في المكتب. أنه عملك وتعال، ستكون في انتظارك.

قاطع حديثهم دخول حياة، تعلن عن انتهاء الفطور، فانتهاز فؤاد الفرصة قائلاً:

— هيا نأكل، فأنا لم آخذ الدواء.

وقام مسرعاً تاركاً سفيان وعلامات الضيق على وجهه. ظلّ صامتاً طوال الجلسة، مما استقرّ حياة، فسألته عمّ به، فاكتفى بأن يرمقها بنظرة ضيقٍ، وهو يأخذ مفاتيح سيارته ليغادر مسرعاً دون أن ينبس ببنت شفةٍ.

نظرت حياة إلى فؤاد غاضبةً:

— ألن تكفّ عن عبثك؟

فضحك فؤاد باستهزاء:

— لن أكفّ حتى تأتي بجانبني هنا.

وغمز لها، فاحمرّت وجنتاها، وذهبت إلى المطبخ مسرعةً، فتابعها فؤاد مبتسماً.

حاول السيطرة على غضبه، فذهب إلى حيِّ الزمالك الذي يُحبّه ليحضر قهوته المفضّلة، ويجلس أمام النيل يتأمّله، ويستنشق الهواء الرطب في راحةٍ بالغة.

يسترق النظر بين الحين والآخر إلى المراهقين الذين يلعبون ويمزحون مع بعضهم البعض على بُعد أمتارٍ منه. يبدو من ملابسهم المدرسية أنهم في المرحلة الثانوية.

كيف مرّت كلّ هذه الأعوام وأصبح رجلاً ثلاثينياً؟!

يتذكّر لحظات لعبه في الثانوية أيضاً مع حبيبته، كأنها بالأمس.

تنهد، وحاول لملمة شتات عقله سريعاً، واتجه إلى سيارته ليذهب إلى عمله.

استقرّ على مكتبه مُطلقاً تنهيدةً طويلةً تركت خلفها مساحةً كبيرةً احتلّتها ملامح الإرهاق، صامتاً لا يريد أن يتحدث، ولا أن يُنصت مجدداً للمرضى أو لغيرهم، متأملاً ملامح وجهه في المرأة الراكدة أمام الأريكة المستلقي عليها.

فكم يكره تلك المرأة وموقعها، والتي لم تفشل يوماً في أن تُريه عجزه عن أخذ ما يُريده من الحياة.

ضحك وسط عاصفة أفكاره:

– كثيراً ما يحتاج الطبيب إلى طبيب.

أدرك أنه إن بقي هكذا سيجنّ جنونه حتماً.

أخذ يُلملم أشياءه مسرعاً ليعود إلى المنزل، فاستوقفه صوت طرقاتٍ متتاليةٍ على باب غرفته، وقبل أن يأذن للطارق بدخوله

كان يستقرّ على الأريكة في ارتياح، يتلقّط قطع الحلوى من على الطاولة ويلوكها في فمه كالأطفال.

قال سفيان، وهو ما زال يُجهّز حقيبته ضاحكًا:

— أئن تتعلّم آداب الاستئذان يا فتى؟

قال غيث:

— تركتها في الحقيبة، عذرًا يا هذا.

قال سفيان:

— أظن أنك ستحتاج للاستغاثة يا غيث حالًا.

حالما أنهى جملته الأخيرة، كان سفيان يجلس فوق رأسه ويضربه ضرباتٍ متتاليةً بالوسادة، علت معها ضحكائهما.

جلسا بجانب بعضهما البعض، يتسامران فيما مضى من يومهما، ويسترجعان بعضًا من ذكريات الماضي المرح والموجع منها، فألقى غيث سؤاله الذي امتلك عرش الجلسة والوقت:

— كيف مضى وكبرنا؟!

قال فؤاد:

— أعتذر كثيرًا منك يا ميشيل، ومنك أيضًا يا ريم، لا أعلم حقًا لماذا تأخّر سفيان هكذا، وهو من قال لي إنه سيذهب إلى العيادة في السابعة ويعود بعدها مباشرةً.

أنهى فؤاد كلامه، وعينه تتابعان ريم وهي تتجوّل بين كتب سفيان في اهتمامٍ وعدم اكتراثٍ باعتذاره.

قال ميشيل:

— على ما يبدو أنه لا يريد هذه الجلسة يا فؤاد، كنت أفضل لو أخبرتني بذلك قبل مجيئي، حتى نتجنب هذا الموقف السخيف.

قال ميشيل جملة الأخيرة، وهو ينفث دخان سيجارته الغليظة، ويستعدّ للرحيل، وهو ينادي ريم عدة مرات دون استجابة.

فحاول فؤاد أن يُخَفِّف من وطأة الموقف قائلاً:

— على ما يبدو أنها وقعت في غرام كتب سفيان.

فنظر إليه ميشيل بضيقٍ يقول:

— أشك في ذلك!

أخذ الأخير أشياءه مودّعاً فؤاد في ضيق، يُحرِّك ربطة عنقه بعصبية، وهو يُلقي بعض السُّباب مخفّضاً صوته من الغيط:

— ذاك المتعجرف لم ولن يتغيّر.

قالت حياة، وهي مُقبلةً عليه بالدواء والماء، مبتسمةً بودّ:

— تعلم من البداية أنه لم يكن من الصواب أن تضع سفيان أمام المدفع ويستسلم.

قال فؤاد في غلظة:

— أتدافعين!!!

قالت:

— لم يعد صغيراً، كبر صغيرُنا وكبرنا معه، اتركه يفعل ما يُريده، ولا تكن مصدر ضغطٍ عليه.

أنهت كلماتها، وطبعت قبلةً على رأسه في خجل، وتركته غارقاً في حيرته وعصبيته وحزنه.

حاول رفع جفونه بتناقلٍ من شدة الإرهاق، لا يرى شيئاً، غارقاً في ظلامٍ كاحلٍ وهدوءٍ قابضٍ يعقد على أنفاسه، مُقلّتا عينيّه تجريان هنا وهناك كعقارب البندول لا تهدأن، يحاول تحرير أطرافه دون جدوى، وكأنه شلّ مكانه، وبدأت أفكاره تستهزئ به كالعادة.

استوقف بندول عينيّه ذاك الظلّ هناك، يتجول في الغرفة بطريقةٍ دائريةٍ عجيبة، إلى أن جاء واستقرّ عند بداية فراشه ينظر إليه. استطاع تمييز عينيّه وما تحمله من كرهٍ غير مبرّر. اجتاحت الحرارة جسده، وكأنّ الفراش يشتعل به. تعافى على ذاته من الألم، ونطق بعد عدّة محاولاتٍ فاشلة، فخرج صوته مبحوحاً يكاد يُسمع: — مَنْ؟!

ظلّ ثوانٍ مرّت كالسّنين، وقف الظلّ وذهب متّجهاً إلى النافذة، وغرق خلف الستائر. سكن كلُّ شيءٍ حتى حرارة جسده، وانطلق جسده فهبّ واقفاً متّجهاً إلى النافذة وهو مرتعد.

فتح الستائر ونظر إلى الخارج، لم يكن هناك أحدٌ سوى عدد من الناس متّجهين إلى المسجد، فأدرك أنه في توقيت الفجر، حينما قطع أفكاره صوتٌ أنثويٌّ خلفه:

— سفيان.

انتفض جسده ونظر إلى اتّجاه الصوت، كانت تقف عند الباب فتاةً في الثّلاثينيّات، جميلةً، كان الضوء المنبعث من القمر كافياً ليرى ملامح وجهها. اعتلت ملامحه الصّدمة، وهمس:

— ريم!

قالت:

— لا وقت، تعال معي أرجوك.

قال:

— إلى أين؟ وكيف وصلتِ إلى هنا؟!

قالت:

— لا أعتقد أنني قطعتُ كلَّ هذه المسافة للإجابة عن تلك الأسئلة السخيفة، تعال لأريك ما يحدث.

لم تنتظر موافقته، وأخذته من يده إلى الخارج باتجاه غرفة الاستقبال، وهو في حالة دهشةٍ من تلك الجراءة. لم تدم تلك الدهشة طويلاً، فتربّصت قدماءه عندما وجد والدته أمامه تقف مع...

لا يدري من هذا، ولم يستطع تمييز ملامحه، فنادى عدّة مرّات عليها، وذهب ليرى المجهول، لكنها لم تكن تراه ولا تشعر بوجوده، ولم تشعر حين حاول الإمساك بيديها. باءت محاولاته في أن يرى هذا الشّخص أو أن يسمع حديثهما بالفشل، كلُّ شيءٍ مشوّش. أخذ ينظر حوله بحثاً عن الفتاة التي ظهرت فجأةً في غرفة المعيشة بعدما كانت بجانبه، وبدأت الحديث مع والدته، ولكن لم يكن يُسمع حديثهما أيضاً.

قالت حياة:

— لماذا استيقظت؟

انقضى جسده دون أسبابٍ تُذكر، لم تكن هذه والدته. نظر في عينيها ليجيب، سرت رعدةً في جسده خوفاً منها، وسيطر عليه الصمت. تجاهلت وجوده، وذهبت باتجاه الأريكة التي عادةً ما

يجلس عليها والده، وأخرجت من ورائها حقيبة، وجاءت تضعها بين يديه، وذهبت باتجاه غرفة النوم. فنظر إلى الباب بحثًا عن الشخص الذي كان هنا، وجد الباب مغلقًا، واختفت ريم من جديد. سكن كلُّ شيء.

فجاءت صرخةٌ شقَّتْ سكون كلِّ شيء.

قام مسرعًا في فزع يبحث عن مصدر الصراخ، يأتي من كلِّ مكان. ركض باتجاه غيث، يصرخ به ليستيقظ. هبَّ غيث واقفًا يحاول تهدئته، ولكن لم يُغيّر شيئًا، فهرع يطلب من إحدى الممرّضات اللواتي يقفن يشاهدن سفيان وهيجانه مُهدّئًا، وحضر طلبه في الوقت ذاته الذي يحاول فيه إمساك سفيان والسيطرة عليه. أعطاه المهدئ، وظلَّ ممسكًا به في أحضانه يحاول تهدئته، إلى أن هدأ جسد سفيان، وسيطر عليه الصمت.

بعد بضع من الوقت بدأ غيث الحديث معه، فلم يستجب له، فذهب ليحضر له الطعام، وأوصى الممرّضة بأن تكون بجانبه إلى أن يعود.

حاول الاتصال بهاتف منزل سفيان، فلم يُجب أحدًا، مما أثار تعجّبه. قال محدّثًا نفسه:

— ألم يقلقوا على سفيان منذ أمس؟

أحضر الطعام وبعض المستلزمات الأخرى:

— على ما يبدو أن الأمر سيطول.

قال جملته الأخيرة، وهو ينحرف مع أول منعطفٍ ذاهبًا إلى منزل سفيان ليحضر له بعض الملابس، ويُخبر والدته بما حدث، ويسألهم بعض الأسئلة لعلّه يعلم سبب عودة نوبة الصراخ التي

لازمته فترةً ليست بالقصيرة، وظهر تأثرها واضحاً على عمله وسيرته بين الناس.

وجد نفسه أمام منزل سفيان، نظر إلى المدخل، واعتلت شفثيه ابتسامةً صغيرةً متذكّراً بها أيام الصبا والمشاعبة الجميلة.

طبع عدّة طرقاتٍ على الباب منتظراً. استقبلته حياة بترحابٍ شديد، وأخذت تنادي سفيان وهي تقول له:

— اجلس... اجلس، سوف أخبر سفيان بحضورك، فقد كان يُحدّثني منذ قليلٍ عن غيابك، وأنه اشتاق إليك.

قالت كلماتها الأخيرة، وذهبت باتجاه غرفة سفيان، تاركةً غيباً في حالة صدمة. أهو قد جنّ جنونه، أم هذه المرأة الخرفة؟!

لم تمرّ سوى بضع ثوانٍ، وأشرق سفيان محيياً إيّاه، وكأنه لم يره منذ زمن:

— يا رجل، متى عدت؟

قال غيبث:

— من ماذا؟

قالها وهو يحاول أن يلمّ شتات عقله، وأن يتماسك عن الهرب. قاطع تفكيره اندهاش سفيان وهو يقول:

— ألم تكن في الأقصر كما قالوا لي؟

قال غيبث:

— من الذي قال، ومتى؟

أجلسه سفيان، وقد باتت على ملامحه الشفقة، وطلب من والدته أن تُحضر لهما ليمونا.

قال:

— يبدو أنك لست بخير، أخبرني ماذا حدث؟

نظر إليه غيث وهو تائه، ولم يع ما يحدث، وتتضارب الأسئلة في عقله: أيخبره ما حدث، أم يذهب ليرى من هذا الذي تركه في المستشفى؟

— لِمَ لا يكون هذا مجرد دعابةٍ من سفيان، وهو أصبح بخيرٍ وأتى إلى المنزل قبله؟ ولكن أشاركه العمّة في هذه المهزلة؟!

قال سفيان وهو يمسك بيده ليطمئنّه:

— غيث!

قال غيث:

— نعم.

قال سفيان:

— ماذا يحدث؟

قال غيث:

— لا شيء، اشتقتُ إليك، وكنْتُ مَرًّا من هنا، فأردت أن أراك، ولكن هناك بعض المهام التي يجب أن أنهيها. سوف نلتقي مرةً ثانيةً في أقرب وقتٍ ممكن.

أنهى كلماته، وهو متّجّه نحو الباب، غير مكترثٍ برّد سفيان الذي تملكه التعجّب من تصرّفاتهِ الغريبة.

اتَّجِهْ غَيْثٌ نَحْوَ السَّيَّارَةِ مَسْرَعًا، وَعَقْلُهُ يَسْبِقُهُ. أَدَارُ سَيَّارَتَهُ وَذَهَبَ إِلَى الْمَسْتَشْفَى، وَعِنْدَ وَصُولِهِ ذَهَبَ إِلَى الْإِسْتِقْبَالِ وَسَأَلَهُمْ:

— مَتَى رَحَلَ الطَّبِيبُ سَفِيَانُ؟

فَأَجَابَتْهُ الْمَوْظِفَةُ بَدْهَشَةً مِنْ دُخُولِهِ وَمَظْهَرِهِ الْمَرْهَقِ:

— مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الطَّبِيبُ غَيْثُ، عَوْدَةٌ حَمِيدَةٌ، غَادَرَ الطَّبِيبُ سَفِيَانُ الْيَوْمَ فِي الثَّامِنَةِ مَسَاءً بَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ حَالَاتِهِ وَ...

لَمْ تَكْدُ تُكْمَلُ كَلِمَاتُهَا حِينَ هَرَعَ غَيْثٌ إِلَى الدَّخَالِ مُتَجَاهِلًا إِيَّاهَا، وَسَطَ أَنْظَارِ الدَّهْشَةِ وَالْإِسْتِغْرَابِ مِنَ الْمَوْظِفِينَ.

وَصَلَ إِلَى الْغُرْفَةِ الَّتِي تَرَكَ بِهَا سَفِيَانُ، لِيَجِدَهَا مَرْتَبَةً، فَارِغَةً، تَكْسُوهَا الْأَتْرَبَةُ الْكَثِيفَةُ الَّتِي تَقْضَحُ إِهْمَالَهَا. وَقَفَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ الْهَارِبَةَ، وَصَوْتَ صَرَخِ عَقْلِهِ سَيَطِرُ عَلَى كِيَانِهِ، يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَذَا مَجْرَدَ كَابُوسٍ، وَيَفِيقُ مِنْهُ فَلَا هُنَاكَ عَقْلٌ وَلَا وَاقِعٌ فِيمَا يَحْدُثُ.

قَطَعَ صَوْتَ عَقْلِهِ طَيِّفٌ أَسْوَدَ يَتَجَسَّدُ أَمَامَ الْمَكْتَبِ. اتَّسَعَتْ حَدَقَتَا عَيْنَيْهِ، يَحَاوِلُ الرُّؤْيَا وَسَطَ الظَّلَامِ. اتَّجَهَتْ يَدُهُ إِلَى لَوْحَةِ الْإِنَارَةِ فَلَمْ يَجِدْهَا، نَظَرَ إِلَى مَكَانِهَا لِيَجِدَ الْحَائِطَ مَسْطَحًا. أَعَادَ نَظْرَهُ إِلَى الْمَكْتَبِ، فَانْتَفَضَ بِرُؤْيَا الْجَسَدِ الْأَسْوَدِ أَمَامَهُ، انْعَقَدَ لِسَانُهُ، وَضَوْءٌ أَبْيَضٌ خَرَجَ مِنْ خَلْفِهِ شَدِيدٌ، لَمْ يَسْتَطِعْ غَيْثُ النَّظَرَ أَكْثَرَ، وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ يَحَاوِلُ حِمَايَتَهُمَا.

شَعَرَ كَأَنَّهُ سَيَفْقَدُ بَصَرَهُ، وَأَنْ عَيْنَيْهِ تَحْتَرِقَانِ، صَوْتُ صَفِيرٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى أُذُنِهِ الَّتِي بَدَأَتْ تَنْزِفُ مِنَ الْأَلَمِ، ثُمَّ سَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى وَعْيُهُ غَابَ عَنْهُ.

قال سفيان:

— لم يُعجبني حالٌ غيث... به شيءٌ مريبٌ يا أبي.

أزاح والده الصحيفة التي كانت تحجب وجهه عنه، وطالعه من فوق عويناته بتمعّن، وقال بنبرة هادئة:

— لِمَ لا تذهب إليه وتتفقّده؟

قال جملته الأخيرة، ثم رفع سبّابته، وحرك عويناته على أرنبة أنفه، وعاد إلى القراءة غير مكترثٍ بما كان سفيان سيقوله.

نظر سفيان إليه بغضبٍ من تصرّفاته. هلت عليهم حياة تحمل بعض المثجّات، وعلى وجهها بسمَةٌ جميلة، وقالت كأنها قرأت صفحة وجهه:

— لا تغضب منه، فقد أصبح عجوزًا.

نظر فؤاد بطرف عينه تجاهها وقال:

— سوف نرى مَنْ مَنّا أصبح عجوزًا.

وضحك مقهقهًا، تبعته ضحكات سفيان، فاحمرّت وجنتاها قائلةً:

— عجوزٌ خرف.

ثم نظرت إلى سفيان وقالت بحدّة:

— إن نظرت إلى الأمور ستجد كلّ الأجوبة، مرّ شهرٌ منذ آخر مرة رأيتُ بها غيث، اختفى دون مقدمات، والمفترض أنه كان يبيت معك في الغرفة، وتستيقظ فلا تجده، وعند سؤالك زوجته تقول سافر إلى الأقصر، وهاتفه الذي أغلق طوال هذه المدة، ثم يظهر فجأة، ويتصرّف هذه التصرفات المريبة، وملامح الفرع التي لم تُفارقَه!

ثم أردفت بعد ثوانٍ:

— لولا أنني رأيته بخيرٍ بأمّ عيني لقلتُ إنه خُطف.

أنهت كلماتها، وهمّت تُعطي المثلّجات لفؤاد وهي تُمازحه. سفيان غارقٌ وسط أفكاره التي قطعنها مكاملة موظفة الاستقبال، وهي تطلب منه الحضور فوراً، وأغلقت الهاتف تاركةً إياه دون إجابته عن استفساراته الكثيرة.

أخذ سفيان المفاتيح، وهو يُطلق عدّة لعناتٍ متتالية، تاركاً باب المنزل مفتوحاً وسط ذهول والدته، الذي قطعه فؤاد قائلاً:

— أصبحنا وحدنا في المنزل يا عزيزتي، دعينا نلهُ قليلاً.

ابتسمت الأخرى بخجلٍ:

— الزم الصمت يا رجل، دعني أكل.

قال:

— سنأكل سوياً.

قال جملة تاركاً المثلّجات جانباً.

خَلَّى سفيانُ المستشفى وهو كالثور الهائج، متوجّداً تلك الموظفة اللعينة التي ظهرت أمامه، وقبل أن ينبس ببنتِ شفةٍ قالت مسرعةً:

— ظهر الطبيبُ غيثٌ، وكان يركض كالمجنون و...

صمتت لثوانٍ، وأردفت:

— الأفضل أن ترى بنفسك.

اتجه سفيان خلفها إلى داخل غرفة الكاميرات بهدوء، وانتظر حتى بدأت تشغيل التسجيل. مرّت الدقائق الأولى وكل شيء هادئ، إلى أن وصل غيث لغرفة مكتبه.

كان سفيان يشعر بنبضات قلبه في عنقه، كانت الأوردة نافرة توشك على الانفجار، شفّاه وعضلات وجهه ترتجف في فزع، وقد احتقن وجهه قائلاً:

— ما مصدر هذا الضوء؟

قالت موظفة الاستقبال بنبرة رسمية:

— كانت إضاءة الغرفة بها عطل وقتنّذ، ولم يكن هناك أي مصدر لهذه الإضاءة الشديدة بالأساس.

ازدرد سفيان ريقه بصعوبة، وحدّق من جديد بعدم استيعاب لما يحدث:

— أين هو الآن؟

— في غرفة مكتبه، وضعنا له بعض المحاليل والمهدئات ليهدأ.

كان ينصت لها سفيان، وهو يمسك فأرة الحاسوب ويمحو التسجيل، وهو يقول:

— تعرفين أنه لا يجب أن يرى أحد هذا التسجيل مطلقاً، لأجل ألا تنتشر الإشاعات والأقاويل على المستشفى قبل أن تطول الطبيب غيث...

نظرت إليه الموظفة متفهمّة، تاركة الغرفة وعادت إلى عملها.

أنهى سفيان حذف جميع التسجيلات من على أجهزة المراقبة، وكان غيث لم يأت اليوم مطلقاً.

واتجه إلى غرفة غيث الذي كان مستلقيًا على الفراش في هدوءٍ مُقْبِضٍ.

جلس على الأريكة المقابلة له، وأرخى رأسه يسترجع ما حدث، وذاك الكابوس الذي رآه منذ شهر، وأتته نوبة الصراخ، وكيف طمأنه غيث وجعله ينام.

أغمض عينيه ليجتر ما حدث، وشعر بما أحسّه تلك الليلة حين استيقظ ليجد نفسه وحده في الغرفة، واختفى غيث حينها وهو في أشد احتياجه إليه.

جاء ملكُ النوم وانتشله من تفكيره، وهو كطفلٍ غريقٍ ركض يمسك بتلك القشة لتنقذه، فغطّ في نومٍ عميق.

1604

يفتح عينيه بنتأملٍ شديد، يحاول إدراك ما حوله، ويغلقهما مجددًا في عدم تركيز.

تتنثر إلى مسامعه بعض الكلمات بلغةٍ غريبة، مصحوبةً بجلبةٍ شديدة.

يحاول تمييز بعضها، مما ساعدت محرّكات عقله على العمل والبحث في أرشيف الذكريات عن تلك اللغة.

مرّت عدة دقائق، وجفونه في ارتخاء، وعقله في عاصفة، إلى أن همس:

– الألمانية!!

فتح عينيه في فزع ينظر حوله؛ غرفةٌ باليةٌ طغت على جدرانها طبقات طلاءٍ داكنةٍ تركت السنون بصمتها عليها.

سقفها متصدّع تتساقط منه القطع إثر الإهمال الطويل.

الأثاث قديم إلى حد يبعث منه رائحة عتيقة مميزة، وأرضها الخشبية تصدر أزيزًا متهالكًا مع كل خطوة، كأنها تنن من قدمها.

أخذ يتجول في الغرفة التي تشابهت أركانها دون اختلاف على رائحتها، إلى أن وصل إلى المطبخ.

كانت تقف به تلك الفتاة تطهو وتدندن بتمایلٍ آثر قلبه وأدخل عليه البهجة، وخصلات شعرها المموجة المنسدلة حتى منتصف ظهرها، وقد ارتدت فستانًا منقوشًا يضيف على حضورها لمسةً من البهاء والأنوثة.

أدارت بخفة تنظر إليه محييةً إياه:

— كيف حالك يا غيث؟

ابتلع ريقه بصعوبة، وكان كتلةً من الأشواك احتلت عقله، وقال بخفوت:

— ريم؟!!

اقتربت منه إلى أن وصلت أمامه، وعلى ملامح وجهها ابتسامة ودّ وحنين، وطبعت على أحد خديه قبلةً بنعومة، وهو فاغر فاه، قد اتسعت حدقتا عينيه.

يحاول التقاط أنفاسه المتسارعة التي تسببت في جفاف حلقه ولسانه، وقال بصوتٍ مبجوح:

— كيف؟ وأين أنا؟!!

تمعنت النظر في عينيه بشوق، وقالت:

– ما للكلمات مكانًا الآن، لا تدرك كم انتظرت هذه اللحظة،
والشوق يفتت قلبي لأكون بين يديك، حتى لو في عالم آخر.
وقعت كلماتها على مسامع غيث يحاول فهم ما يحدث، ولكنه عجز
عن ذلك.

أردفت ريم:

– نمت كثيرًا، وسنتأخر عن الموعد، دعنا نذهب الآن، وبعدها
أجيبك على أسئلتك التي لم تسألها.
نطق غيث بصعوبة:

– إلى أين؟!

– القلعة الحمراء، لدينا مهمة هناك، ومعها تسترجع ذكرياتنا
سويًا.

تركته دون اكتراث بما كان لديه من حديث، وذهبت تلتقط بعض
قطع اللحم التي كانت تطهوها باستمتاع.
استوقفه لون حساء اللحم الأحمر، يشبه في قتامة عتمته لون الدم
الداكن.

اجتاحه شعور القرف والغثيان، غير أنه سرعان ما طرد تلك
الخواطر التي تهاجمه، فما من أمرٍ منطقي يحدث حوله، وكأنه
عالق في حلم لم يتمناه يومًا.

عادت ريم إليه، وفي يدها قطعة لحم تحاول أن تضعها في فمه.

وعند اشمئزازه وابتعاده عنها وضعتها في فمها، وأخذت تلوكها بطريقةٍ منفرة، بينما ارتسمت على وجه غيث ملامح الاشمئزاز، تلك التي أثرت ريم تجاهلها تمامًا.

وقالت وهي تضع يدها حول عنقه:

— لم تخبرني، لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

أنزل غيث يدها الملتفة حول عنقه، ودفعها بعنف واشمئزاز وهو يقول:

— تزوجتُ وأحيا حياةً سعيدة.

رمقته بنظرة انتصار، ثم ابتعدت تعدّ نفسها للخروج، وقالت بصوتٍ متعالٍ:

— جميل، لقد أسعدتني كلماتك. هيا بنا نرحل، أم تراك ستبقى وحيداً هنا تجهل ما يحدث؟

لم تمهله فرصة للرد، ومضت في طريقها، بينما بقي هو واقفاً يُحدّق في الباب، تغشاه دوامة من الأفكار عما سيفعله في هذه الورطة.

لم يطل ترده طويلاً، فقد قرر أن يلحق بها ما دام لا يعلم أين هو، ولا لِمَ كانت هي بالذات جزءاً من هذا المجهول.

2025

— يا طبيب... يا طبيب...

فتح جفونه بإرهاق، يحاول أن يتبيّن المنادى ويستوعب الزمان والمكان.

فإذا بإحدى الممرضات تقف على مقربة منه تحاول إيقاظه.
حينها اعتدل في جلسته، ومسح عينيه بتكاسل قبل أن يسألها
بصوتٍ مبجوح:

— ماذا هناك؟ ماذا تريدین؟

لتجيبه بتردد يشي بالقلق:

— الطبيب غيب... لقد اختفى مجدداً.

حدق فيها بلا استيعاب، وكأن الكلمات لم تجد طريقها إلى عقله، ثم
تمتم بغير وعي:

— أعيدي ما قلت...

وقبل أن تفرغ من تكرار عبارتها كان قد هب واقفاً، موجّهاً بصره
نحو السرير المرتب، وكأن لم يضطجع عليه قط.

شعر ببرودة تجتاح صدره، فأخذ يركض مسرعاً نحو غرفة
الكاميرات، مطالباً الموظف المسؤول عنها أن يعيد له تسجيلات
الأمس حتى اللحظة الحالية.

لعن حظه حين تذكر أن الغرفة خالية من أي كاميرات داخلية،
فاضطر للاكتفاء بمراجعة الكاميرا المثبتة أمام بابها.

أخذ يعيد التسجيل دقيقة بدقيقة، منذ لحظة دخوله الغرفة وحتى
اقتراب وقت الفجر.

عندها باغتهم ضوء شديد الانبعاث، بلغت موجاته من الكثافة ما
شوَّش عدسة الكاميرا وأربك الصورة.

ظل الضوء مسيطراً لثوانٍ معدودة، ثم انقشع فجأة، فعاد كل شيء
إلى طبيعته حتى حلول النهار ودخول الممرضة.

نهض سفيان من أمام شاشات التسجيلات منهكاً جسدياً وعقلياً،
يجرّ خلفه خيباته وأسئلته العالقة.

كيف كان داخل الغرفة وحدث كل ذلك؟ وأين اختفى غيث؟

غص صدره بألم الفقد، وقطع تفكيره تذكره أنه نسي مسح
التسجيلات، فعاد مسرعاً إلى غرفة الكاميرات ومحا كل المقاطع
المتعلقة بتلك الليلة.

ثم اتجه إلى مكتب المدير طالباً إجازة لليوم بحجة الإرهاق.

وهناك واجهه المدير بما يثار من أقاويل في المستشفى حول غيث
واختفائه.

حاول سفيان أن يغلق باب الحديث قائلاً بلهجة حاسمة:

— غيث يمر بعدة مشكلات وتجارب، سيعود منها باكتشاف يشهد
له التاريخ والبشرية بأسرها.

ثم استأذن وغادر متثاقلاً عائداً إلى منزله.

1604

تُفَتَّحُ أبوابُ القاعةِ الثقيلة، فتنسَلُّ تياراتٌ من البردِ والحذرِ مع وَقْعِ
خطواتها.

تدخلُ ببطءٍ كأنها ظلٌّ متجسِّدٌ في جسدِ امرأةٍ.

تندلّي الثرياتُ الذهبيةُ من السقفِ العالي، تنتثرُ ضوءاً مرتجفاً على
فستانها الغارق في السواد، المطرّز بخيوط فضية تُشبهُ العناكبَ
التي تنسجُ شبّاكها على قلبٍ من يُحدّق طويلاً.

فستانها طويلٌ يلامسُ الأرض، أكمامه منتفخةٌ عند الأكتاف، ثم تنسابُ ضيقةً حتى المعصمين، حيث تلمعُ خواتمُ مرصعةٌ بالياقوتِ الأحمر كجروحٍ متجمّدةٍ.

حولَ عنقها طوقٌ من الدانتيلِ الأبيض الناصع، لكنه يبدو كحافةٍ سكينٍ تنتظرُ اللحظةَ لتقطع.

تتدلَّى على صدرها قلادةٌ ذهبيةٌ ثقيلةٌ تتوسطها جوهرةٌ حمراء قاتمة، كأنها نقطةٌ دمٍ ضخمةٌ تصلبت على قلبها.

شعرها مرفوعٌ بعنايةٍ إلى الخلف، يلمع كالليل، ويعلوه تاجٌ صغيرٌ من الفضةِ الموشاةِ بالأحجار السوداء.

كلما تقدّمت داخل القاعة يعلو صوتُ الكعبِ المعدنيِّ لحذائها فوق الأرضيةِ الخشبيةِ العتيقة، كأنها طرقاتُ نعلٍ يقترب، تحملُ ابتسامةً رقيقةً مصطنعةً، وعيونُ الحاضرين لا تجرؤ على النظر إليها طويلاً.

كان غيثٌ واقفاً وسط الحاضرين يتابعها بانبهارٍ بالغٍ ودهشةٍ تعصفُ به، متأملاً خضوعَ الجميع وانكسارهم، وقد أطارقوا أبصارهم نحو الأرض، لا يجرؤ أحدهم على رفع نظره إليها خشيةً أن تخترقه عيناها الحادثتان.

التفت نحو ريمِ الراكدة بجواره باحثاً في ملامحها عن أثرٍ للدهشة التي تعتريه، فلم يجد شيئاً، كأن الأمر بالنسبة لها ليس إلا مشهداً مألوفاً تراه مراراً وتكراراً.

همس إليها بصوتٍ مبجوحٍ مرتبكٍ:

— من هذه؟ وأين نحن؟ ولماذا نحن وسط كل هؤلاء؟

فاكتفت ريم بأن رمقته بنظرة خاطفة، قبل أن تعود بتركيزها كله إلى الواقعة بشموخ.

وما إن نطقت الواقعة:

– الطعام.

حتى تدفق جمعٌ من الخدم يحملون صحنًا عامرةً بأصناف الأطعمة، والتي كانت مختلفةً وغريبةً عن غيث.

بدأ الحاضرون يتوزعون على موائد مختلفة.

في تلك اللحظة أمسكت ريم بيد غيث وذهبا إلى المقاعد، وجلست إلى جواره وسط الحاضرين، ثم همست قائلةً بنبرةٍ جادة:

– أنصت.

أصغى غيث بكل جوارحه إلى تلك الهمهمات المتناثرة بين الحاضرين، أصواتٍ متشابكةٍ تكشف ما يضطرب في صدورهم.

– لم يمض سوى شهرٍ واحدٍ على وفاة ناداستي، وها هي قد اعتلت القلعة وأصبح كل شيء لها.

– أنا خائفة يا أمي، لا أريد أن أعمل هنا.

– ثرى من منا سيكون عليها الدور؟

التفت غيث إلى ريم وقد ارتسم الضجر على ملامحه، وقال بنبرةٍ حادة:

– إن لم توضحي لي ما الذي يحدث وأين نحن، سأتركك وأرحل.

يكفيني أنني احتملت رؤيتك البغيضة بعد كل هذه الأعوام.

رمقته بثباتٍ واقتربت قليلاً، وهمست بصوتٍ حادٍّ يلامس الوتر العاطفي داخله:

– انظر في عينيّ، وأخبرني بصدقٍ، ألم يشتق قلبك يوماً لرؤيتي؟
لم تنتظر جوابه، وأردفت بسرعةٍ وحزمٍ:

– ما يهم الآن أن تتابع ما يجري، وفي نهاية اليوم سنتناقش في هذا الأمر.

وأردفت وهي تنتظر في وجوه من حولها:

– ما ينبغي عليّ إخبارك به الآن هو ألا يعلم أحد هنا ماهيّتك.
تحدّث بالألمانية، وتصرف كأنك واحدٌ منهم.

نريد أن نتم ما جننا لأجله، ونخرج بأقل الخسائر الممكنة.

لم يكذب عليّ كلماتها حتى وجد الخدم يرفعون الصحون من أمام الجميع معلّنين انتهاء وقت الطعام، ليقف الحاضرون في أماكنهم من جديد بانتظامٍ مهيبٍ.

اقترب غيث هامساً:

– وماذا بعد؟

أجابته ريم بصوتٍ خافتٍ:

– سنلقي خطابها الآن، ثم تختار من سيعمل في القلعة، ومن سيعود إلى منزله صفر اليدين بلا مالٍ ولا عمل.

سأل غيث باستغراب:

– أكل هؤلاء يتهافون على العمل في القلعة؟

فأجابته ريم، وعيناها مثبتتان على الواقعة:

– بل كل هؤلاء يتهاقثون على رضاها، وعلى ما تمنحه من مالٍ يسدّ جوعهم.

إن سوء الإدارة والحكم جعل المجاعة سيّدة الموقف.

سأل بلهفة متوجّسة:

– في أي بلد نحن؟

فأجابته ريم ببرودٍ محسوب:

– مملكة المجر، والتي أمامنا الآن هي إليزابيث باثوري.

صمتت لبرهةٍ قبل أن تتابع بنبرةٍ واثقة:

– أعلم ما يدور في رأسك، أجل، هي نفسها تلك التي كنا نبحت عن أخبارها، وشغلت حيزًا كبيرًا من مراقبتنا.

نظرت إليه بعينين يغشاهما الحنو:

– وعلى الرغم من أن تلك الأيام كانت طفوليةً ومضحكة، إلا أنني أحن إليها، وإلى الدفء الذي حملته.

التفتت حولها بحذر، ثم أردفت بصرامةٍ خافتة:

– أسئلتك الكثيرة في الوقت الراهن قد تجلب علينا ضررًا. أرجوك، اكتفِ بالمشاهدة وصمتك.

التفت غيث حوله بقلبي يعصف به كأن جدران القلعة تقترب لتطبق على صدره. كان ذهنه يتخبط، يحاول التشبث بآخر صورةٍ في ذاكرته، وأي طريقٍ ساقه إلى هنا.

شدّد تركيزه على كلمات ريم مسترجعاً في ذهنه تلك الفترة من المراهقة، فكان صاعقةً ضربت وعيه، وهمس مذهولاً:

— إنها ميتة!

اتسعت حدقتا عينيه وهو يرى إليزابيث أمامه كأنه يراها أول مرة، وهي تعدل ثوبها ببطء مهيب، ورفعت رأسها شامخةً لتبدأ خطبتها بصوتٍ واثقٍ يملأ القاعة:

— يا أهل المجر، أنتم تعلمون ما حل ببلادنا؛ حروبٌ مع العثمانيين أنهكت الأرض، وإدارةٌ فاسدةٌ أورثتكم الجوع. أنتم هنا لأنكم اخترتم أبواب قلعة تشاتيتسه ملجأً ورجاءً، لكن العمل في قلعتي ليس حقاً يُمنَح، بل وسامٌ لمن يعرف لغة السهام المخفية في الصمت.

لا أريد العُتادَ الذين يرمون إليّ خضوعاً مخادعاً، ولا التقليد الأعمى.

صمتت لبرهةٍ تلتقط أنفاسها، وأردفت:

— سأختار منكم اليوم من يليق أن يكون في خدمتي؛ من يمتلك الانضباط، والصبر، والقوة على احتمال مشقة الحياة بين هذه الجدران.

تذكروا أن الشرف في أن تنالوا ثقتي أعظم من أي مالٍ يُلقى في الطريق.

أنهت إليزابيث خطبتها، وعادت بخطواتٍ ثابتةٍ إلى الكرسي الضخم الذي ينتصف القاعة، وجلست متوجةً بالصمت.

فيما أشار كبير الخدم متقدماً إلى الجمع بصوتٍ جهوري:

– من ترى نفسها طباحةً ماهرةً، متقنةً لفنون الطبخ، فلتتقدم.

في لحظةٍ اندفع عددٌ كبير من السيدات يتسابقن إلى الصفوف الأولى بعجلةٍ لاهثة.

تولت كبيرة الخدم ترتيبهن واحدةً تلو الأخرى ليقفن صفًا طويلاً أمام عين السيدة.

وبنظرةٍ باردةٍ متفحصةٍ أخذت إليزابيث تتأمل الوجوه حتى استقر بصرها على أجملهن، رفعت يدها بخفةٍ إيذاناً باختيارها.

فغمر الحاضرين صمتٌ مزيجٌ من الحسد والرغبة، فيما ظل الباقون ينتظرون نصيبهم.

تقدم كبير الخدم من جديد، ووقف في منتصف القاعة رافعاً صوته مجلجلاً:

– من ترى نفسها من الفتيات تصلح أن تكون مسرحةً ومرتبةً للسيدة فلتتقدم.

تقدم الكثيرات منهنّ، ولم يكد الصمت يستقر حتى قالت كبيرة الخدم بنظرةٍ صارمة:

– أكلُكُنَّ عذاري؟

ساد المكان ارتباكٌ مفاجئ، وتبادلت الفتيات النظرات في وجَلٍ، قبل أن تهمس إحداهنّ بعد تردد:

– أنا متزوجة.

ارتفعت حاجباها غيظًا، وأشارت بيدها صارخة:

– اخرجني!

لا مكان للمتزوجات بين صفوف السيدة.

ثم مسحت بنظرها الباقيات، مشددةً بنبرةٍ تحذيريةٍ تقطر حدةً:

– إياكن أن تخفين عني أمراً، السيدة تريد العذراء فقط، وأي كاذبةٍ تُكتشف لن ترى ضوء الشمس مجدداً.

سرت قشعريرةً بين الفتيات، كأن الكلمة الأخيرة ختمت على قلوبهن بالرعب.

ثبت كبير الخدم مكانه يترقب إشارة سيّده ليعلن اختيارها، غير أن عيني إليزابيث لم تنصرفا إلى صفوف الفتيات الواقفات، بل انغرستا وسط الجموع حيث استقرتا على وجهٍ بعينه.

وللمرة الأولى منذ أن أنهت خطابها ارتفع صوتها واثقاً ببرود:

– أحضروها لي.

رافعةً يدها تشير بإصبعها مباشرةً نحو ريم.

تجمد جسد الأخيرة، وسقط قلبها في قاع صدرها، فتشبّثت بيد غيث تستجدي النجاة هامسةً بخوفٍ مختلق:

– لا تتركني... يجب أن نعود أدرأنا الآن!

لم تكمل كلماتها حتى اندفعت يدٌ قوية تسحبها بعنف من أمامه لثرمي أرضاً تحت قدمي إليزابيث، حيث علّت ابتسامَةً على وجه الأخيرة.

في تلك اللحظة اجتاحت جسد غيث حرارةٌ لافحةٌ كأنها نارٌ تسري في عروقه، فانتفخت أوردته وتصلّبت عضلاته وهو عاجز عن الحركة.

بدأت الرؤية أمامه تتشوش، الوجوه تتداخل، تتحول إلى صدى بعيد لا يصل منه إلا رَجَعٌ خافتٌ يوجعه في رأسه.

شهق من الأعماق، ونادى بصراخٍ يائسٍ:

– ريم!!

لكن صوته بدا مبوحًا، يضيع في فراغٍ خائق، وفي ومضةٍ خاطفةٍ غَشِيَتِ القاعة ظُلْمَةٌ دامسة.

فتح سفيان بابَ المنزل وهو يجرُّ قدميه من شدة الإرهاق.

وما إن ولج إلى الداخل حتى وقعت عيناه على والديه جالسين في غرفة الضيوف، فاندفع إليهما بحنينٍ جارف.

لم يكذ ينطق حتى سبقته حياةٌ مرَّجبةٌ بوجهٍ بشوش:

– مرحبًا يا عزيزي، لدينا ضيفٌ بانتظارك منذ وقتٍ ليس بالقصير.

توقّف سفيان في مكانه لحظةً يُعَدِّل من هندامه المرتبك، ويشدّ قامته كمن يحاول استعادة وقاره.

أقبل على الغرفة بفضول، وما إن وقعت عيناه على الضيف حتى انقبض صدره وأثقل الهواء عليه، لكنه ما لبث أن أخفى ذلك خلف ابتسامةٍ متكأفة، واقفًا في مكانه دون أن يمدّ يده للتحية.

قال بنبرةٍ مشوبةٍ بالبرود:

– كيف حالك أيها الطبيب ميشيل؟

ارتفع حاجبا الأخير قليلاً، والتقط ابتسامة خبيثة لم تخل من التشقي، ثم أشار إلى المقعد المقابل له وكأنه يجلس في بيته:

— تعبك بادٍ عليك يا طبيب... لكني جئت لأمرٍ لا يحتمل الانتظار.

رمق سفيان والديه بنظرة عتابٍ خاطفة، ثم التفت إلى ميشيل متجاهلاً إشارته إلى المقعد المقابل، واتجه متعمداً نحو مقعدٍ آخر وجلس متكئاً إلى الخلف واضعاً رجلاً فوق رجل.

نظر إليه بثباتٍ وقال ببرودٍ لاذع:

— إذا، ما الأمر الذي جعلك تتذكرني بعد كل هذه السنوات؟

بل ويحتّم عليك أن تأتي إلى منزلي دون موعدٍ مسبق؟!

ارتسمت على وجه ميشيل ابتسامة جانبية متوترة قائلاً:

— كنت هنا قبل بضعة أيام على هذا المقعد عينه أنتظر قدومك، كنت قد أخذت موعداً قبلها، وأكرمني والدك بحكم زمالتنا، ولكنك تخلفت عنه.

ساد الصمت بينهما حتى كسره سفيان بتوجّسٍ ناظرًا إلى والده وهو يتمتم بصوتٍ متهدّج:

— ريم؟!

أوماً والده برأسٍ مثقل، ثم خفض عينيه إلى الأرض هروباً من المواجهة.

استدرك سفيان الموقف سريعاً وقال:

— لم تتعالج ريم منذ أن كنا صغاراً، فما الذي أيقظ فجأة غريزة الأبوة بك الان لتستعجل علاجها!

وأكمل وهو يضحك باستهزاء:

– وتعالجها مع مَنْ؟

صمت لحظةً وأردف بمرارةٍ لازعة:

– أنا؟! أشكر الرب أنني لم آتِ في ذلك اليوم.

قال ميشيل محافظاً على جمود ملامحه:

– أرجو منك أن تفصل حياتك الشخصية عن عملك، فذلك أنفع لك.

على أية حالٍ، كنت أحتاج إلى مساعدتك في علاج ريم بالفعل كما قلت.

وأردف متأثراً:

– إن حالتها تسوء يوماً بعد يوم. لقد باتت تختفي لأيامٍ وتعود لا تذكر شيئاً مما جرى. اعتدت الأمر على مضضٍ، وهي الآن مخفية منذ الصباح ولا أعلم عنها شيئاً، لكنني واثق أنها ستعود.

صمت لحظة، ثم أردف بصوتٍ أكثر ثباتاً:

– جئت اليوم طالباً عونك حين تعود... أريد أن تعود ريم يا سفيان.

ساد الصمت في الغرفة كستارةٍ ثقيلة تخنق الأنفاس، والكل يترقب ما سيقوله سفيان، الذي اعتدل في جلسته فجأةً كأنه اتخذ قراره بالفعل، ثم نهض وهمّ بالخروج وقال وهو يتجه نحو الباب بصوتٍ حاسم:

– أعطه رقم هاتفي يا أبي، حينما تعود ابنتك يا ميشيل تواصل معي لنبدأ جلسات العلاج.

لم يلتفت خلفه، وما إن أنهى جملته حتى كان قد بلغ نهاية الغرفة، ثم غادر المنزل بخطواتٍ ثابتة، تاركًا خلفه وجوهًا مذهولة من سرعة موافقته.

قاد سيارته مباشرةً إلى الزمالك، إلى المكان الذي اعتاد أن يلجأ إليه كلما ضاقت به الدنيا.

جلس أمام النيل ساكنًا في مظهره، عاصفًا في داخله، يتأمل مجرى الماء وكأنه يبحث فيه عن خيطٍ يفسّر حياته الممزّقة.

داهمه مشهد قديم:

اندفاع غيث إلى غرفته في تلك الليلة المقمرة، وأغلق الباب خلفه بقوة، ثم أسند ظهره إليه وهو يلهث.

تقدّم بخطواتٍ متردّدة، يقطر العرق من جبينه، وعيناه زائغتان.

جلس أمام سفيان ومدّ يده المرتجفة نحو الطاولة وهو يهمس بصوتٍ متقطّع:

— هناك ما أريد أن أحدثك عنه، لكن ما سأبوح به لن يخرج من بيننا.

أجابه سفيان بثبات، وعيناه تخترقان اضطرابه:

— اهدأ يا غيث... أنا معك، تكلم.

ارتجفت شفتا غيث، وانحنى بجسده إلى الأمام كأنه يريد أن يهمس بسرٍّ لا يجرؤ الهواء أن يحمله.

تردّد لحظة، ثم قال بصوتٍ واهن:

— ريم يا سفيان...

ساد الصمت، وتوقّف شريط الذكريات عند هذه الجملة، كان عقل
سفيان يأبى أن يجزّه إلى ما وراءها.

لمّ سفيان شتات عقله، نهض من مقعده ببطء، يشعر بثقلٍ في
صدره لا يزول، لكنه أجبر نفسه على السير نحو سيارته.

قاد الطريق بصمت، أضواء الزمالك تتناثر حوله بلا معنى، وكلما
اقترب من منزله ازدادت ضربات قلبه.

دخل سفيان منزله، فوجد الأضواء مطفاةً، والجو ساكنًا كأن البيت
قد ابتلع أنفاسه. أيقن أن والديه قد خلدا إلى النوم، فتابع خطواته
الوئيدة نحو المطبخ.

ملأ كأسًا من عصير الجوافة المفضّل لديه.

دائمًا ما تحضره حياة له حتى يتناول منه قبل الخلود إلى النوم،
فأصبحت عادةً مستمرة محببة إلى قلبه.

ابتسم نصف ابتسامةٍ في امتنانٍ لوالدته.

ارتعش ضوء المطبخ عدة مرات، ثم هدا كل شيء فجأة.

تابع إلى غرفته مطمئنًا، وما إن دفع الباب حتى تجمّد مكانه.
حدّقت عيناه في مشهدٍ غير مألوف: رجل ممدّد على سريره.

ظل سفيان واقفًا مكانه عدة ثوانٍ منتظرًا حدوث أي شيء.

اقترب خطوةً بخطوة حتى تبيّنت ملامح النائم على ضوء القمر
المنبعث من النافذة.

شهق سفيان مذهولًا:

— غيث!!!

ظل الأخير ساكنًا للحظة، ثم استعاد سفيان رباطة جأشه، فأضاء نور الغرفة، وأحضر كُرسياً وجلس قبالة غيث يترقب أن يفيق.

كان بين الفئنة والأخرى يقترب منه ليتأكد من أنفاسه المنتظمة، وكأن كل زفرة يجزّها تطمئن قلبه المذعور.

طال الليل وثقل على الأجفان حتى بزغ الفجر وأشرقت أنوار الصباح، فبدأت أنامل غيث تتحرك في ببطء.

فتح عينيه مثقلاً وقد غمره الدوار، يحاول جمع ما تبعثر من أحداث الليلة الماضية واستيعاب أين هو.

رفع بصره فإذا بسفيان جالس على الكرسي أمامه، رأسه مائل على صدره وقد غلبه النوم من شدة السهر والانتظار.

اعتدل غيث في جلسته واستعاد قليلاً من عافيته، ثم أرخى ظهره للحظة وأغمض عينيه كأن رأسه قد سقط في متاهة استرجاع.

رحلة متلاحقة من الذكريات المتشابكة، يحاول أن يربط خيوطها ببعضها البعض ليصل إلى صورة أوضح لما جرى.

فتح عينيه مجدداً، والأفكار تتزاحم في رأسه كأمواج هائجة لا يجد بينها إجابةً واحدة.

التفت حوله بارتياح، فوقّع بصره على كأس ماءٍ إلى جواره، فالتقطه بلهفة وشرب منه بنهم حتى كاد يُفرغه. وما إن انتهى حتى انزلقت يده، فوقعت بعض الأوراق والملفات على الأرض.

انتهض سفيان من نومه على أثر الصوت، واقترب منه مسرعاً يضع يده على كتفه ويسأله بقلقٍ متلاحق لا يترك له فرصة للرد.

كانت أسئلته المتتابعة تنضح خوفاً صريحاً عليه.

ابتسم غيث ابتسامة باهتة وهو يرفع كفه مطمئناً:

— اهدأ يا صديقي... أنا بخير، لكنني جائع جداً أيضاً.

فلنأكل أولاً ثم أقص عليك ما جرى.

أوماً سفيان برأسه موافقاً وقد شعر ببعض السكينة، ثم أسرع بخطواتٍ متلهفة نحو غرفة والديه، يوقظ والدته في بشارة فرحة قائلاً:

— غيث عاد يا حياة! أفيقي... وهو بخير، هيّا يا حياة، هو جائع أيضاً.

ابتسم غيث وهو يسمع هتافات سفيان الممزوجة بالفرح، ثم مدّ يده ليللم الأوراق التي تبعثرت على الأرض.

لم يقاوم فضوله، فأخذ يقرأ بعض السطور، وأدرك بعد لحظات أنها أوراق أبحاث سفيان التي طالما انشغل بها.

مرّت في ذهنه ذكرى قديمة يوم دخل عليه سفيان متحمساً وهو يخبره أن ما يعمل عليه ليس مجرد بحث، بل قنبلة علمية ستقلب الموازين.

في تلك اللحظة قطع سفيان تفكيره بدخوله، وعيناه تقعان على الأوراق في يد غيث، وهو مبتسم بهدوء قائلاً:

— أمي فرحت كثيراً، تناديك الآن... هلاً نخرج؟

ثم مدّ يده وأخذ الأوراق من بين أصابع غيث برفقٍ متكّلف، وأعادها إلى مكانها قبل أن يفتح الباب ويخرج بصحبة غيث نحو غرفة الطعام.

جلس غيث على المائدة تُحيطه أجواء دافئة افتقدتها طويلاً، والدا
سفيان فَرَحان به ويطمئنان عليه من الحين إلى الآخر، وحياة تضع
الطعام على السفرة بخفية ومرح، تداعبه بكلماتٍ رقيقة تجعل
المكان أكثر بهجة.

وبينما هو غارق في دفء الجو، قفزت إلى ذهنه صورة زوجته
جيرمين، فضاق صدره فجأة، وقطع شروده متوجّهاً إلى سفيان
بطلب:

— أريد هاتفك، أود أن أحادث جيرمين.

ابتسم سفيان بهدوء وقال بنبرة مطمئنة:

— لا تقلق، كنت على تواصل معها طوال الساعات الماضية، وقد
حادثتها منذ قليل.

إنها في الطريق إليك الآن... لم تحتل الانتظار.

ثم غمز بعينه مضيئاً بنبرة صادقة:

— تحبك كثيراً.

ارتسمت على وجه غيث ابتسامة صافية، وقال:

— لن أتناول الطعام حتى تصل جيرمين.

فضحك الجميع من كلماته وحركاته الطفولية، وارتدّ الضحك في
قلبه دفناً غريباً لم يذقه منذ زمن.

ولم يمض وقت طويل حتى دوى في أرجاء البيت طرقٌ متتالٍ
على الباب، فنهضت حياة مسرعة لتفتحه، وإذا بجيرمين تقف عند
العتبة مذعورة القسمات، عيناها تجولان في المكان تبحثان عنه،
والدموع تتحدر على وجنتيها.

وما إن وقع بصرها عليه حتى اندفعت نحوه تركض، وارتمت بين ذراعيه تبكي بحرقة، وقالت قبل أن ينطق:

— كم كنت تائهة من دونك... أين ذهبت؟ لماذا تركتني؟

ثم أردفت وهي ترتجف:

— أقسم لك لن أثقل عليك بشيء، فقط لا ترحل عني ثانية... لا تتركني وحدي.

كان غيث يحتضنها برفق، يحاول تهدئتها بكلماتٍ حنونةٍ وصوتٍ مطمئن، يمسح بيده على كتفها حتى هدأت أنفاسها شيئاً فشيئاً.

وبعد دقائق من الصمت المشحون بالعاطفة، حاول فؤاد أن يخفف جو التوتر، فقال مماًزحاً وهو ينظر إلى المائدة:

— أأنا نأكل يا جيرمين؟

ضحك الجميع من تعليقه، بينما مسحت جيرمين دموعها سريعاً وقالت بخجلٍ رقيق:

— أعتذر جداً... هيّا بنا نأكل.

دخلت حياة المطبخ لتعيد الطعام من جديد مع جيرمين، وعادت تحمل بين يديها صحناً عامراً بما لذ وطاب، تتصاعد منه روائح البيت الدافئة.

ابتسم سفيان بخبث وهو يتقدم نحوها قائلاً:

— جميل! أعطني هذا الطبق.

أبعدت حياة الصحن بسرعة وقالت بصرامةٍ لا تخلو من الدعابة:

— لا، هذا لغيث يا ولد... ابتعد.

قطب سفيان حاجبيه في غيظٍ مفتعل، وأردف متذمراً:

— يا رجل، أُمي تهتم بك أكثر منا!

ضحك غيث وقال وهو يتأمل الصحن بشهيةٍ مفتحة:

— يا لحظي الجميل أن أكل من يد حياة!

اقتربت حياة منه بحنو، تقبل جبينه بخفة وهي تضع الصحن أمامه، وهمست محدرة:

— إن لم تُنه سَأعاقبك!

انفجر الجميع ضاحكين، وبدؤوا بعد لحظة يمدّون أيديهم إلى الطعام، فسادت المائدة سَكينة صامئة يقطعها صوت الملاعق، وهم ينهلون من دَفء البيت أكثر مما ينهلون من الطعام.

ولم تمض سوى ثوانٍ حتى اقتربت جيرمين من غيث وهو ما يزال يتناول طعامه، فمالَت إليه وهمست بصوتٍ متقطع كأن قلبها يسابق كلماتها:

— لا أطيق هذا الصمت أكثر... أخبرني... أين كنت؟

رفع غيث عينيه نحوها، وفي صوته ارتباك ممزوج بحدة:

— أرى أن علينا الانتظار حتى نعود إلى بيتنا.

قالت جيرمين وهي تبتسم بمرارة:

— أترأك ما زلت تذكر أن لك بيتاً؟

أطرق قليلاً ثم أجابها بنبرةٍ يُغالب فيها الغضب:

— أذكر يا جيرمين، ولكن هل تذكرين أنتِ أين نحن؟

ارتعشت نظراتها وقالت بحرقة:

– لم أصدق نفسي حين بلغني خبر عودتك، حتى حين ظهرت
كنت عند صديقك ولم تفكر أن تعود إليّ.

زفر غيث بحدة قائلاً:

– لن تنتهي، أليس كذلك؟

ارتفعت وتيرة صوته فلفت أنظار الجميع، فبادر سفيان بالتدخل
وقد بدا متماسكاً على غير عادته، وقال بلهجة حادة:

– جيرمين، لقد انتهينا من هذا الحديث من قبل.

أخبرتك أنه لم يكن في وسعه أن يودّعك، الطبيب ميشيل باغتنا
بتلك الرحلة.

ثم إنني شرحت لك أن الأمر إضافة تاريخية في مسيرتنا العلمية.

ساد صمت ثقيل، وانكشفت جيرمين في مقعدها تخفي غصتها،
بينما تجمّد غيث في مكانه، ثم لملم شتاته وأكمل بقية صحنه، وهمّ
لينظف يديه مسرعاً.

حين فرغ غيث من تنظيف يديه التفت ليجد سفيان واقفاً خلفه
يرمقه بعينٍ جادة، فقال بصوتٍ منخفض:

– سأنتظرك في الغرفة، يجب أن نتحدث.

أوماً غيث وهو يجفف يديه:

– حسناً، أحضر العصير قبل أن تأتي.

تركه سفيان وخرج، بينما خطف غيث نظرة إلى جيرمين التي
كانت تُعين حياة في تنظيف المائدة، فراحت تحدّق فيه بعيونٍ
ملأها العتاب الصامت.

دخل غيث غرفة سفيان وجلس على السرير، ثم سرعان ما وقعت عيناه على أوراق البحث مبعثرة فوق المكتب.

مدّ يده يلمّها بعفوية حتى عثر على الغلاف، ففتحه واتسعت عيناه من الدهشة:

– الطبيب ميشيل!!!

في تلك اللحظة دخل سفيان وهو يحمل كأساً من العصير، فاستدار غيث بحدة وصوته يرتجف من الدهول:

– لم تخبرني قط أن الطبيب ميشيل هو مشرفك في البحث؟!

نظر إليه سفيان ببرود قائلاً:

– لا، لم يكن هو... كان الطبيب يعقوب، تذكره؟

لكنه اعتذر منذ أيام قليلة، حينها تحدّث والذي مع ميشيل، فوافق أن يشرف عليّ بشرط... أن أساعده في علاج ريم سرّاً.

ارتسمت على وجه غيث علامات الضيق، ولكن سفيان واصل حديثه بلهجة صارمة:

– كل هذا جرى وأنت غائب... كيف كنت سأخبرك؟!

أطبق الصمت بينهما للحظة، ثم قدّم سفيان كأس العصير لغيث الذي أخذه على مضض وجلس إلى جواره مردفًا:

– أتدري عمّ يتناول بحثي؟

رفع غيث عينيه المرهقتين وقال مترددًا:

– قرأت بعض الأسطر، لكن لم يتضح لي الأمر.

ابتسم سفيان وهمس:

– أتعلم شيئاً عن ريم؟

تجمّد غيث في مكانه ولم يُجب، وانعكس في عينيه اضطراب عميق.

فأردف سفيان بصوتٍ أثقل من الهواء:

– أنت تعلم قدراتها منذ طفولتنا، كم قضينا الليالي نبحث عن تلك العوالم التي تراها في أحلامها.

كنا نظنها عبثاً، لكن العلم أثبت لي أن الأمر لم يكن عبثاً قط.

مال بجسده نحو غيث، وصوته ينخفض حتى صار أقرب إلى رجاءٍ مُلحّ:

– أحتاج مساعدتك في بحثي... أرجوك.

لكن الكلمات لم تصل كاملة إلى وعي غيث، فقد بدأت الدنيا من حوله تتلاشى، وثقل جفناه كأنهما يقاومان عاصفة.

ظل يحاول فتح عينيه حتى خارت قواه، وفي لحظةٍ خاطفةٍ اسودّت الحياة بأكملها.

يسمّع صوتاً بعيداً كأنّه يخرج من أعماق الضباب، ينادي باسمه.

حاول أن يفتح عينيه فلم يستطع.

جسده مُثقل، والبرد القارس يلفح أطرافه حتى كاد أن يتجمّد.

يشعر كأنّه يطفو في السماء، تتقاذفه الرياح، بينما ذلك الصوت يزداد وضوحاً... يقترب، يخترق أغشية الغيبوبة التي يروح تحتها.

وبينما هو يكافح، انفَرَجَت عيناه ببطء شديد كأنهما يُزاحان عن صخرة ثقيلة.

تمتم بصوت مبحوح:

— ريم!

كانت واقفة أمامه، وجهها يضيء بابتسامة حانية، وعيناها تحملان قلقًا دفينًا.

قالت برقة وهي تقترب منه وتضع يدها فوق جبينه لتستشعر حرارته:

— أخيرًا استيقظت، لقد أفلقتني كثيرًا.

ظل غيث صامتًا، يحاول إدراك كيف عاد إلى هنا، وعقله يتأرجح بين اليقظة والحلم.

رفع رأسه قليلًا، وعيناه تتجولان حوله؛ إنه في غرفة واسعة، جدرانها باهتة تكسوها شقوق الزمن.

الإضاءة فيها خافتة كأنها على وشك الانطفاء.

الأثاث قديم الطراز مُطعمٌ بخشب داكن يبعث رهبة غامضة في المكان.

في زاوية الغرفة كانت ثمة مرآة ضخمة ذات إطار نحاسي متآكل.

مدّ غيث يده يلمس الفراش الصلب الذي يستلقي عليه. لا تختلف حال هذه الغرفة عن التي سبقتها.

نظر إلى ريم بتفحص لحالها، وقال بصوت مرتبك:

– أين نحن؟

ظَلَّت ريم صامتة لحظات، وعيناها تتأملان ملامحه المرتبكة، ثم قالت بصوت حازم ممزوج بالرجاء:

– انظر إليّ يا غيث، أريد أن ينتهي كل هذا، ولا أريد أن يمَسَّكَ سوء.

أرجوك، انسَ ما حدث في الماضي، وضعه وراء ظهركَ وساعدني.

توقّفت لحظة كأنها تختار كلماتها بعناية، وأردفت:

– في حياتك الآن جيرمين... هي تحبك حقًا، وستفعل لأجلك ما لم أستطع أنا فعله.

نحن في مهمة، أو بالأحرى... أنا في مهمة، وأنت هنا لتوثّق كل شيء. يجب أن نحصل على أكثر من دليل يثبت أننا كنّا هنا.

نظر إليها غيث بعينين يملؤهما الغيظ، وهتف بصوت مخنوق:

– هنا! أين؟ أين نحن؟! لماذا لا تخبريني؟! لماذا أنا هنا؟! وكيف أتينا من الأساس؟!!

فجأة، وضعت ريم يدها على فمه لتسكته، وعيناها تتسعان في فزع وهي تحدّق نحو الباب.

لمحت ظلًا واقفًا خلفه، فأشارت لغيث بيدها نحو الباب إشارة حادة ليفهم.

دوى طرق خافت على الباب، فتقدّمت ريم بخطوات مترددة حتى فتحته، لتجد إحدى الفتيات واقفة بوجه متوتر تقول:

– الكونتيسة تتجهّز للاستحمام، ويجب أن تكوني هناك حاليًا.

أومأت ريم سريعاً، وقالت بصوت متماسك:

– نعم، سأكون هناك فوراً.

وأغلقت الباب على عجل، ثم استدارت نحو غيث وهمست بصرامة:

– الجميع هنا يظنوننا زوجين، فلا تدع أي كلمة منك تفضحنا.

ولم تكذ ريم تبتعد خطوة عن الباب، حتى دوى طرق جديد، هذه المرّة أعنف من السابق.

فتحت الباب لتجد رجلين ضخمي الجثة، تفوح منهما رائحة نتنة كريهة، وشواربهما تتدلى أطول من عمر حياتها نفسها.

قال أحدهما بصوت خشن:

– أين زوجك يا امرأة؟

تجمّدت ريم لحظة من القرف، ثم التفتت تنادي بسرعة بصوت متوتر:

– يوهانس، هناك من يطلبك!

ظل غيث واقفاً في مكانه، ينظر حوله متسائلاً كأنما يبحث عن رجل آخر، ثم التفت إليها مذهولاً.

رمقته ريم بنظرة حادة، وأعادت النداء بنبرة آمرة هذه المرّة.

نهض غيث بخطوات مترددة واقترب من الباب. عندها قال أحد الرجلين وهو يرمقه من أعلى إلى أسفل بازدراء:

– أتقيم هنا مستظلاً دون عمل؟

ثم أردف الآخر بلهجة صارمة:

– أمرتنا الكونتيسة أن نأخذك للعمل معنا... هيا!

لم يمهله ليرد أو حتى ليحي ما يحدث؛ جذبه بعنف من ذراعه واقتادوه إلى خارج الغرفة، والذهول يكسو ملامحه، وريم تقف واجمة في مكانها، قلبها يخفق بشدة.

ثم اتجهت ريم إلى غرفة إليزابيث، حيث تجمعت عشرات الفتيات واقفات بصمت على جانبي الغرفة، والأجواء مشحونة بالتوتر.

كانت إليزابيث خلف الستار في غرفة الاستحمام، يُسمع خرير الماء وصوت خطواتها.

وقفت ريم بينهن تراقب وجوههن الشاحبة، وتصغي إلى همساتهن المرتجفة التي تفيض قلقًا ورهبة، حتى فُتح الستار أخيرًا.

خرجت إليزابيث ببطء، يقطر الماء من جسدها، لم ترتد سوى ثوب خفيف يكاد لا يسترها.

انحنى جميع الفتيات في لحظة واحدة، وغضت ريم بصرها حتى كادت تلامس الأرض.

تقدّمت إليزابيث بخطى متزنة، تمر بهنّ واحدة تلو الأخرى بعينها الحادثتين، حتى توقفت أمام فتاة صغيرة في بداية المراهقة، يبدو عليها البراءة والخوف.

ابتسمت إليزابيث ابتسامة باردة، وقالت بصوت هادئ يحمل أمرًا:

– مرحبًا يا جميلة، لم لا تأتين لتساعديني؟

رفعت الفتاة رأسها ببطء، وقالت بصوت مرتجف:

– أكيد، تحت أمرك.

ابتسمت إليزابيث وأمسكت بيدها برفق وسحبته معها إلى داخل غرفة الاستحمام، قبل أن تلتفت إلى الباقيات وتلوح بيدها إشارة لهن بالانصراف.

هرعت الفتيات خارج الغرفة بخطى متسارعة، وبقيت ريم متييسّة في مكانها.

اقتربت رئيسة الخدم بخطى سريعة، قائلة بصوت حاد:

— ما بالك واقفة يا جين؟ ألم تري إشارة الكونتيسة بالانصراف؟

تجمّدت ريم لحظة، ثم قالت بصوت خافت يتخلله الارتباك:

— أألن أبقى لأمشط شعر الكونتيسة وأساعدنها في ارتداء ملابسها؟
رمقتها كبيرة الخدم بنظرة صارمة وأجابت:

— ليس الآن، اذهبي إلى المطبخ وساعديهن هناك، وعودي بعد ثلاث ساعات، أو سأرسل من يخبرك وقتئذ.

أومأت ريم برأسها مطيعة، وانسحبت بهدوء، لكن قلبها لم يهدأ. كانت خطواتها ثقيلة، ورأسها يعج بعشرات الأسئلة.

وفي طريقها إلى المطبخ، كانت تبحث بعينيها في كل زاوية عن غيث لعلها تلمحه، والقلق ينهش قلبها.

وصلت إلى المطبخ، وكان الجميع يعملون بصمت خائق، لا يُسمع سوى صوت أواني الطعام.

اتجهت ريم إلى حوض الصُّحون وبدأت تلميعها ببطء. مضت ثوانٍ قليلة حتى قطعت إحداهن الصمت بصوت يائس:

— أنظّل هنا طوال حياتنا؟

رمقتها أخرى بنظرة حادة وهمست:

— اصمتي، لا ينبغي أن نتحدث في أي شيء... حتى الجدران لها أذان.

ساد الصمت من جديد. شعرت ريم بقشعريرة تسري في جسدها، ثم تمتمت بصوت خافت وكأنها تكلم نفسها:

— أشعر بالخوف مما يجري هنا.

التفتت إليها إحداهن ونظرت بعينيها نظرة غامضة ثم قالت:

— لا تقلقي... ستعتادين مع الوقت.

قال وهو يقلّب بين يديه قطعاً من القماش مختلفة الألوان متشابهة النوع:

— ما اسم هذه القماشية يا وليم؟

ابتسم وليم ببلاهة وأجاب ببساطة:

— إنها الموسلين.

رفع غيث حاجبيه وقال متأملاً:

— اسمها غريب.

— غريب! من أي البلاد أنت يا يوهانس؟

تردد غيث لحظة، وقال بصوت خافت:

— لا موطن لي، أنا دائم الترحال.

أوماً وليم برأسه وقال بلهجة تجمع بين الإعجاب والشفقة:

— هذا أمر مثير ومرهق في الوقت ذاته.

ثم أشار إلى الأقمشة التي بين يدي غيث وأضاف بجدية:

— احفظ أسماء الأقمشة، فالكونتيسة تحب أن يحيط بها من يفهم ذوقها؛ فإن راقها عمك انتقلت إلى مقام أرفع.

قال غيث بلا اهتمام ظاهر، ورأسه يشتعل بأفكار متضاربة عما يجري حوله:

— حسنًا...

قالت إحدى الفتيات:

— جين، لقد فرغت الكونتييسة من حمامها.

وذهبت. تركت ريم ما في يديها مسرعة، وفضولها يسبق خطواتها.

وصلت إلى غرفة إليزابيث، طرقت الباب بخفة، ثم دخلت.

كانت إليزابيث جالسةً أمام المرأة تتحسّس بشرتها بعناية لافته، ثم التفتت نحو ريم التي خَفَضت بصرها فورًا.

— مرحبًا يا جين، تعالي.

اقتربت ريم بخطوات حذرة، أمسكت بالمشط وبدأت بتسريح شعر إليزابيث بعناية.

نظرت إليها إليزابيث عبر المرأة وقالت:

— أتعلمين يا جين؟

— أعلم ماذا؟

— أنا لا أختار متزوجات أبدًا من بين خادماتي.

بقيت ريم صامئة تحدّق في الأرض، بينما أردفت إليزابيث وهي تداعب خصلات شعرها:

— لكن ذلك اليوم حين وقعت عيناك عليّ وسطهن، شعرت أنك مختلفة، لم أر متزوجة تهتم بنفسها وبشرتها وجمالها مثلك.

ثم استدارت قليلاً نحو ريم وأضافت بصوت أعمق، وكأنها تمنحها امتيازًا خاصًا:

— جمالك رفع من قدرك يا فتاة.

— أنا محظوظة جدًا لأنك اخترتني يا كونتيسة.

ابتسمت إليزابيث بكبرياء.

— بالطبع عزيزتي، وكيف حال زوجك؟

— إنه بخير، جاء رجلان اليوم وأخذوه ليعمل معهما.

أومأت إليزابيث برضا وقالت وكأنها تمنّ عليهما بكرمها:

— بلى، أردت أن أكسبه مهنة هنا ليرتقي، فكل هذا لأجلك يا جين.

خفضت ريم رأسها وهمست:

— لا أعلم كيف أشكر.

ثم انحنى فقبلت يدها على مضض، وعيناها تنتقلان في أرجاء الغرفة تبحثان عن أي شيء قد يلتفت نظرها فيما بعد.

— أعتقد أنني سأجهّز فستانًا جديدًا اليوم... ما رأيك يا جين؟

قالتها إليزابيث وهي واقفة أمام المرأة تتأمل جسدها. ابتسمت ريم وقالت:

— جميل يا كونتيسة، أهذا مناسب؟

رفعت إيزابيث حاجبها وقالت ببرود:

– أعطني أكثر فستان عارٍ عندك.

أحضرت ريم الفستان وساعدتها في ارتدائه.

جلست إيزابيث أمام المرأة مرة أخرى، ثم سألت وهي تلامس بشرتها البيضاء المشدودة:

– ما رأيك في بشرتي يا جين؟

نظرت ريم إليها بدهشة مصطنعة، وبدأت تُثني عليها وتتغزل بجمالها، ثم اندفعت بحماس وسألت:

– ماذا تستخدمين لتجعلي بشرتك مشدودة وبيضاء هكذا؟

– دماء.

نظرت لها ريم ضاحكة وقالت:

– ماذا؟

– سأستخدم دماءك إن لم تكفي عن سؤالي عما لا يعنيك.

ثم أردفت وهي تنهض:

– انتهى عملي اليوم.

أومأت ريم برأسها سريعاً وانسحبت من الغرفة.

– البالاتين ثرزو أرسل عدة مكاتيب يجب أن تطلعي عليها.

قالت أنا وهي ترتدي ثوبها وتلملم شعرها.

رفعت إيزابيث رأسها أمام المرأة، وحدّقت باتجاه غرفة الاستحمام التي خرجت منها أنا وهي تعدّل ملابسها، ثم سألت بحدة:

– متى أرسلت؟

– صباح اليوم.

زمت إيزابيث شفيتها بغیظ قائلة:

– لم تخبريني!

– كنا بصدد إنهاء أمر آخر يا كونتيسة.

مدّت إيزابيث يدها باختصار:

– هاتيهما، اقرئيهما واذهبي وأخبريهما أن يحضروا المفصلين.

أومأت أنا برأسها وانصرفت مسرعة، بينما جلست إيزابيث على أريكتها وأخذت تقرأ المكاتيب واحدًا تلو الآخر.

عبثت ملامحها شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى الخاتمة التي جاء فيها تحذير واضح:

– احذري الملك ماتياس، فإن عينيه عليك.

شدّت أصابعها على الورق حتى كاد يتكرمش، ثم رفعت رأسها ونظراتها تومض غضبًا.

قطعت طرقات متتابعة على الباب أفكار إيزابيث، فأذنت بالدخول.

دخلت أنا يتبعها أربعة من المصمّمين، واحدًا تلو الآخر، رؤوسهم محيّية في خشوع حتى اصطفّوا أمامها في صف واحد.

كانت إليزابيث تقف بفستانها شبه العاري تستعرض قوامها
وجمالها، ثم رفعت عينيها نحو أحدهم وقالت بصوت ناعم يخالطه
الأمر:

– كيف حالك يا وليم؟

– بخير يا سيدتي.

– أعجبنى كثيراً آخر فستان صمّمته لي... لكننا سنمنح الفرصة
اليوم لزوج جين الجميلة.

– لكن يا سيدتي، إنه أول...

لم تمهله إكمال جملته، بل رفعت يدها بحركة صارمة فصمت في
الحال.

ثم حوّلت بصرها إلى غيث الذي كان يحاول إخفاء ارتبائه بينما
يسترق النظر إليها.

لاحظت ذلك وهي تتقدم نحوه بخطوات بطيئة:

– ما اسمك؟

أجاب بصوت منخفض يكاد لا يُسمع:

– يوهانس.

أومأت برأسها وكأنها تتذوّق الاسم على لسانها، ثم قالت ببرود
لذيذ:

– حسناً، إذاً ابدأ عملك.

ثم أشارت لبقيّة المصمّمين بيد واحدة أن ينصرفوا.

تبادلوا النظرات الحاقدة مع غيث قبل أن يحنوا رؤوسهم ويخرجوا في صمت ثقيل، تاركينه وحيداً.

بدأ غيث بإخراج أدواته التي لم يحفظ أسماءها بعد، بينما يستعيد في ذهنه تعليمات وليم التي لقّنه إياها قبل ساعات قليلة.

حاول أن يتمالك نفسه وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يسأل:

– كيف تريدان الفستان، سيدتي؟

– أتحمّلين تفصيلاً معيناً في ذاكرتك؟ وما المناسبة التي ترغبين أن يلائمها؟

رفعت إليزابيث حاجبها بدهشة طفيفة، ثم أطلقت ضحكة قصيرة ماكرة، وهي تتقدم نحوه بخطوات محسوبة وكأنها تفتّسه بعينها.

– يا رجل، في العادة لا يجروُ أحد على سؤالي مثل هذه الأسئلة.

استخدم مخيّلتك، أنا أمامك، صمّم لي ما يُبرز جمالي كما لم يفعله أحد من قبل.

شعر غيث بثقل المهمة، وهو يسخر من وضعه الحالي في داخله.

أمسك قطعة القماش بين يديه محاولاً تثبيت أفكاره، وهو يراقب انعكاسها في المرآة خلفها، ثم بدا يرسم بخطوط مرتجفة.

مضت عدة ساعات، وغيث يعمل بتركيز جاد لا يعرف للراحة سبيلاً، فيما تتزاحم في رأسه صور متداخلة لفتيات في أزياء ذلك العصر؛ تلك التي كان يراها في المجلات القديمة وكتب الأزياء التاريخية، وكان يتمنى حينها لو عاش زمنها يوماً وتزوَّج منهن.

تبيّت آخر دبابيس الفستان فتنفّس الصعداء وقال:

– أيمكنني أن أذهب لأحضر دبابيس أخرى وأكمل العمل؟

أجابته إيزابيث ببرود وهي تحدّق في المرأة:

— لا، في الصندوق ستجد مرادك.

تحرك غيث بضجر نحو الصندوق، الذي ما إن فتحه حتى اتسعت عيناه دهشة، واجداً أمامه مقابض حديدية ذات شوك بارز، أشبه بما يضعونه في يد السجناء في زمنه.

شعر بقشعريرة تجتاح جسده، لكنه تمالك نفسه سريعاً، عبث بالأشياء بيد مرتجفة حتى ظفر بالدبابيس، ثم أغلق الصندوق بحذر.

في تلك الأثناء دخلت أنا، رمقته بنظرة عابرة قبل أن تتوجه بخطابها إلى إيزابيث.

ظل غيث واقفاً يتابع ما يحدث، فيما استمرت إيزابيث تتأمل نفسها في المرأة قائلة بصوت متهمك:

— أرسلني إلى البالاتين ثرزو أنني ممتنة لتهديداته، وارفقي مع الرسالة وليمة من كل ما لذّ وطاب.

بعد عدة ثوانٍ دون إجابة، استدارت إليها إيزابيث قائلة:

— لمَ تنظرين إليّ هكذا؟

ابتسمت أنا قائلة:

— جميلة جداً في هذا الفستان يا كونتيسة، كأن عمرك نقص أعواماً، ورغم جراءة الفستان، إلا أنه لم يزدك سوى جمالاً ورقّة.

ابتسمت إيزابيث بهدوء ونظرت لغيث قائلة:

— أكمل يا يوهانس.

فشرع في متابعة عمله، يثبت الدبابيس الأخيرة قبل أن يبتسم وقد
بدا التعب على ملامحه:

— انتهيت يا كونتيسة.

ثم أضاف وهو يبتعد خطوتين ليفسح لها المجال:

— سأتركك الآن لتتأملِي ذاتك في المرآة، ثم أرسلِي إليّ الفستان
لأتم ما بقي من تثبيته.

استدارت إليزابيث أمام المرآة، تمرّر أصابعها على قماش الفستان
بإعجاب بالغ، ثم التفتت نحوه وقد ارتسمت على شفثيها ابتسامة
راضية:

— أمم... جميل. أحسنت، يوهانس.

أجابها غيث وهو يحني رأسه قليلاً في احترام، غير أن عينيه
تعمّدتا الثبات في عينيها:

— إنه لشرف لي، حين تحتاجين إليّ ستجدينني حاضراً.

لم ترد، وإنما تبادلت معه نظرة قصيرة صامتة قبل أن يدير ظهره
ويغادر.

فتح باب غرفته، فاستقبلته رائحة الطعام الدافئة.

كانت ريم منهمكةً في إعداد العشاء، وما إن رأت وجهه حتى
تركت ما بيدها وركضت نحوه تعانقه بحرارة ملأت الغرفة دفئاً.
ظلا متعانقين دقائقً طويلةً، صامتين، يحاول كلُّ منهما أن يسيطر
على شوقه المتراكم.

قال غيث بصوتٍ متهدّج:

— أريد أن أعود إلى حياتي... إلى زمني... إلى جيرمين.

قال جملته الأخيرة وهو يبتعد عنها، يجلس على الأريكة المتهاكة كأنَّ العالم ينهار فوق رأسه.

اكتفت ريم بالصمت، واستدارت نحو المطبخ لتكمل إعداد الطعام دون أن تلتفت إليه، وهو يراقبها بعينين حائرتين.

فجأة قالت بصوتٍ ثابتٍ دون أن ترفع رأسها:

— اذهب وأحضِر ما تحت الفراش.

لم يجرؤ على سؤال: ماذا تحت الفراش؟ بل اندفع نحو السرير وجثا على ركبتيه يبحث، حتى وجد صندوقًا كبيرًا أثقله الصدا.

جرَّه بصعوبةٍ بالغِةٍ حتى أخرجَه دون إصدار أي صوتٍ يجذب الانتباه.

وبضربةٍ واحدةٍ خفيفةٍ كُسر القفل المتهترئ.

تردَّد لحظةً قبل أن يفتح الغطاء، ثم اتَّسعت حدقتا عينيه دهشةً.

رأى أمامه مجموعةً من أجهزة التجسَّس الحديثة. غرق وسط الأجهزة التي كان يعرف بعضها، والبعض الآخر أوَّل مرةٍ يراه، قبل أن يفيق على لمسة يدها على كتفه وصوتها الهادئ يقول:

— عندما ترسل لك إليزابيث الفستان لتثبته، ضع فيه هذا الجهاز.

ناولته جهاز تسجيلٍ صغير، ثم تابعت:

— أنا أيضًا أريد أن أعود إلى حياتي... إلى أبي... لم تكن أسطورةً كما ظننا.

يجب أن ننهي كل شيءٍ قبل عودتنا.

قال غيث وهو يقلِّب بين الأجهزة بذهول:

– كيف انتقلنا مع الأجهزة إلى هذا العصر؟ أهى تقنية اكتشفت في زماننا ولم يُعلن عنها بعد؟

– لم ننتقل بالزمن يا غيث، أجسادنا ما زالت في عصرنا، لكننا هنا أيضًا.

همس واضعًا يده على رأسه:

– لقد هلك عقلي... تَبًّا لك يا ريم.

نهض غاضبًا متجهًا إلى فراشه، لكنه توقّف فجأةً والتفت إليها متسائلًا:

– كيف عرفتِ أنني صممت لها فستانًا؟

أجابته ببرودٍ وهي تعيد الصندوق إلى مكانه:

– ليس من شأنك.

ثم ذهبت تحضر صحن الطعام كأنَّ شيئًا لم يحدث، وتناولته في صمت.

مرَّ الليل ثقیلاً على قلب غيث، كأنَّ ساعاته تتدلى فوق صدره كأجمارٍ ثقیلةٍ. لم يذق فيه طعم النوم، محدِّقًا في السقف، وأفكاره تتصارع كأنها عاصفةٌ لا تهدأ.

ريم على الأريكة لم تتحرَّك، ساكنةٌ كتمثال، وعيناها غارقتان في صمتٍ يثير القلق.

مع بزوغ الفجر وبدء حركة القصر، نهض غيث مرتديًا ثيابه على عجل، وقبل أن يفتح الباب جاءه صوت ريم رقيقًا مترددًا:

– أَلن تنتظر حتى نتناول الطعام معًا؟

توقّف لحظةً عند الباب، لم يلتفت إليها، قائلاً بصوتٍ مبجوح:

– ليتكِ لم تعودِي إلى حياتي أبداً.

جلست ريم مكانها، والدموع تنحدر على وجنتيها بصمت، لكنها لم تستطع أن تلومه... فقد أصبح كلاهما أسيراً في زمنٍ لا يخصّه.

– مرحباً أيُّها المبدع!

قالها وليم بابتسامةٍ واسعةٍ، فالتفت إليه غيث بتعجّب:

– صباح الخير يا وليم، كيف حالك؟

– بخير يا رجل، اليوم سعيدٌ بحقٍّ، والحظُّ فاتحٌ لك ذراعيه.

قطّب غيث حاجبيه متهمكماً:

– أيُّ حظٍّ هذا يا رجل؟

– لقد أرسلت الكونتيسة في طلبك.

أطلق غيث زفرةً طويلةً وهو يشيخ بوجهه:

– أهذا هو الحظ الذي نتحدث عنه!

– بلى يا رجل، لقد أرسلت كبيرة الخدم بنفسها. أنا لا تذهب إلى أحدٍ إلّا إذا كان مهماً.

قال غيث بنبرةٍ مترددة:

– آه... حسناً، سأذهب إليها.

ابتسم وليم وربّت على كتفه بخفّة:

– انتظر الأخبار السعيدة يا رجل.

أسرع غيث بخطاه عائداً إلى القصر حتى بلغ غرفة إليزابيث.

طرق الباب ثلاثَ طرقَاتٍ خفيفةً، ثم دخل حين أُذِنَ له.
كانت إيزابيث جالسةً على الأريكة في هيبَةٍ وهدوءٍ، وأنا تقف
أمامها ممسكةً بحزمةٍ من الأوراق.
رفعتا أنظارَهما نحوه، فقال غيث بهدوءٍ:

– أخبروني أنكِ أرسلتِ في طلبي.

أشارت إليه إيزابيث بيدها ليصمت، وعادت لتتأمل إلى أنا وتتابع
حديثها:

– أخبريه أنني سأكون الليلة في القلعة، وأرجو أن يقبل دعوتي
المتواضعة حتى نضع حدًا لكل هذه الأقاويل الكاذبة.
مدّت يدها إلى أنا:

– أعطيني خاتم الختم.

أسرعت أنا نحو الصندوق وأخرجت الخاتم، فطبعته إيزابيث على
الرسالة بخفّةٍ وقالت:
– أرسلها فورًا.

أومأت أنا برأسها وانصرفت مسرعةً.

نهضت إيزابيث بخطواتٍ رشيقَةٍ نحو خزانة ملابسها، وأخرجت
الفستان، ثم وضعته على السرير أمامه بعناية، وقالت وهي تتأملها
بعينها:

– كيف رأيتني حين كنت تصمّم الفستان؟

– لم أفهم، أرجو التوضيح.

– هذا الفستان بالغ الجمال ويشبهني... فكيف رأيتني أنت حتى تخرج من بين يديك قطعة كهذه؟

أجابها بثقة وهو يثبت نظره في عينيها:

– لم أرَ أجمل منك قط، فمن الطبيعي أن أصمم لك فستانًا كهذا.

رفعت حاجبها بدهشة ممزوجة بالإعجاب:

– لم أعلم أن ذوقك رفيع إلى هذا الحد!

اقترب منها غيث خطوة خطوة، وقال بنبرة بها مكر واضح:

– لم تعطني الفرصة لتتعلمي... لكنك تعلمين الآن، فماذا بعد برأيك؟

نظرت إليه لحظة صامتة، ثم مالت برأسها قليلًا وقالت ببرود:

– وغبي أيضًا!

وقف غيث يضحك بصدق من التحول المفاجئ في حديثها، فهتفت غاضبة قليلًا:

– لم تضحك وأنا أسبك؟

أجابها والضحكة لا تزال عالقة على شفثيه:

– لأنك خفيفة الظل.

تأملته إليزابيث طويلًا، ثم قالت بنبرة متعجبة:

– يبدو عليك أنك نقي القلب، جريء اللسان... لم يجروا أحد من قبل أن يمازحني حتى على هذا النحو، وإلا كنت عاقبته بطرده من القلعة فورًا.

ألا تخشى أن أفعل بك ذلك الآن؟

ابتسم غيث في هدوءٍ وقال:

— وماذا فعلت أنا يا جميلة؟

شهقت باستنكارٍ وهي تضحك بغیظ:

— تَبَّأ لو قاحتك... أتغازلني!

ضحك غيث بخفّةٍ قائلاً:

— حسنًا... حسنًا، سأكفّ عن ذلك... لِمَ طلبتني؟

صمتت لحظة، ثم انحنى قليلاً للأمام وقالت ببطء:

— ألا ترغب في أن تكون بجانبني دومًا؟

رفع حاجبيه متسائلًا:

— ماذا تعنين؟

— خادم غرفة الكونتيسة إليزابيث.

ضحك بخفّةٍ مصطنعةٍ وهو يمشي بيده:

— لكن ما حاجتك إليّ وهناك كبيرة الخدم أنا، تدير كل شيء؟

قطّبت جبينها وقالت بجديّةٍ خافتة:

— لا تعباً بأنا... أنا في حاجةٍ إلى رجلٍ قويٍّ... وسيم.

قهقه غيث متعمداً الاستفزاز:

— إذًا... أنتِ من تُغازليني الآن!

ارتفعت نبرة صوتها ضاحكة:

— تَبَّأ لك يا هذا!

رفع يديه كالمستسلم:

— حسناً، لا تغضبني، أنا كنت أمارحك.

أدارت وجهها جانباً لتخفي ابتسامةً صغيرة، ثم قالت بصرامة:

— اذهب الآن، وسأنتظر ردك.

أوماً غيث مطيعاً، وقبل أن يستدير للخروج قال:

— أيمكنني أن آخذ الفستان لأكمّله؟

حدّجته بنظرةٍ طويلة، ثم أشارت برأسها:

— خذه.

— أخبريني يا جين، من أين أنتِ؟

قالتها أنا وهي مقتربةٌ منها. ابتسمت ريم بخفةٍ وقالت:

— لم أنتبه إلى مجيئك يا أنا. نحن رُحَّلٌ لا وطن لنا.

رفعت أنا حاجبيها بدهشةٍ قائلة:

— وأين تعرّفتِ على زوجك؟

— كنا أصدقاء منذ الصغر. لماذا كل هذه الأسئلة؟

ابتسمت أنا بخفةٍ قائلة:

— مجرد فضول يا فتاة.

ثم التفتت إلى الحاضرات قائلة:

— هيا يا بنات، أسرعن في إنهاء الطعام، فضيفنا على وشك الوصول.

مضت ريم نحو قدر الطعام على النار وبدأت تقلّب المرق، ثم أخرجت عددًا من الشرائح الصغيرة التي تشبه شرائح الهواتف لكنها أصغر حجمًا بكثير، وأسقطتها في القدر، وأغلقت النار معلنة انتهاء الطعام.

قالت إحدى الفتيات:

– هلمّي بنا لنحضر الطماطم من الحديقة.

– حسنًا يا روز، امنحيني دقيقةً فقط لأحضر السلة.

قالت ريم جملتها وهي تمضي إلى آخر غرفة الطعام حيث تترك السلة، وهناك نافذة تطل على مشغل الملابس.

رفعت بصرها، فإذا بأنا واقفةً مع غيث، تضحك وتتمايل، وتُمنع في ملاسته كأنها تعتمد إثارة القرب منه.

قطع صوتُ روز، وهي تناديها، العاصفة التي اشتعلت بداخلها، فاستفاقت على عجلٍ وخرجت إلى الحديقة، وبدأتًا بقطف الطماطم.

قطعت ريم الصمت الساكن قائلة:

– منذ متى وأنتِ هنا يا روز؟

فأجابتها الأخيرة دون اكتراث:

– هذا عامي الرابع.

– أوه، ليست مدةً قصيرةً.

ابتسمت روز قليلًا:

– بلى، هي كذلك.

ترددت ريم قليلاً ثم سألت:

– هل تبيّنت حقيقة تلك الأقوال التي تنتثر في أرجاء القلعة؟

خفضت روز بصرها وقالت بنبرة جادة:

– لا أعلم شيئاً، ولا تسألي عن شيءٍ لمصلحتك.

هزّت ريم رأسها متفهمة، وابتعدت متعمدةً إلى أطراف الحديقة، فصاحت بها روز محدّرة:

– ليس مسموحاً لنا أن نبلغ هذه القطع من الأرض، عودي ودعينا ندخل.

أجابتها ريم متناقلة:

– حسناً.

وفي طريق عودتها تعثرت وسقطت بالسلسلة، فركضت روز إليها مذعورةً وهي تقول:

– أأنت بخير؟

همست ريم متألّمة:

– التوت قدمي... ساعديني.

أمسكتها روز مرتبكة قائلة:

– ساعديني أنت، يجب أن نرحل من هنا، هذه القطعة ملعونة!

– ماذا تقولين؟

– لا شيء... لا شيء!

– هيا، حاولي الصمود معي لنعود إلى الداخل.

دخلت ريم متكئةً على ذراع روز، يتعثر خطوها ويعلو أنينها المكتوم.

أسرعت بضع فتيات من الخدم نحوهما، وبدت على وجوههن علامات القلق.

قالت إحداهن:

– هيا، لنأخذها إلى غرفتها لتستريح.

رفعت ريم رأسها بإصرارٍ رغم الألم وقالت بصوتٍ متقطع:

– لا... هناك أعمال يجب أن تنتهي.

– أجلسوني في المطبخ، سأكون بخير.

تبادلت الفتيات النظرات في حيرةٍ بين طاعتها والشفقة عليها، فيما تشبثت روز بيدها محاولة إقناعها، لكن ملامح ريم كانت أقوى من ضعف جسدها، فأدخلنها برفقٍ وأجلسنها على مقعدٍ خشبيٍّ في زاوية غرفة الطعام.

وأسرعت إحداهنّ بإحضار وعاءٍ مملوءٍ بماءٍ دافئٍ لتضع فيه قدم ريم، التي تنفست الصعداء حين غمرها الدفء وشعرت شيئاً فشيئاً أن الألم يتلاشى.

ولم تمر سوى دقائق حتى بدأت تستعيد قوتها، فانتفضت محاولة النهوض. تعجبت الفتيات من سرعة تحسنها، وتبادلن النظرات الصامتة، أما ريم فلم تعباً باندهاشهن، بل مدت يدها نحو الصحون الموضوعة على الطاولة، وهمت بحملها إلى المائدة وكأن شيئاً لم يكن.

لم تستطع أن تخفي دهشتها أمام طول المائدة واتساع القاعة، وكأنها انزعت من أحد أفلام الأميرات.

كانت ترتب الصحون ببطءٍ وعناية، تستمتع بكل لحظة، حتى مرَّ غيث من أمام القاعة.

ما إن وقع بصرها عليه حتى أسرعت نحو الباب، تنادي متلهفة:

– غيث، انتظر... غيث... غيث!

توقف الأخير وعاد إدراجه، مرتسمًا على ملامحه الدهشة، وقال متسائلًا بجد:

– أنسيب ماذا سميتني؟

صمتت لثوانٍ قبل أن تعي خطأها، فارتبكت ونظرت حولها متلعثمة، ثم غيّرت مجرى الحديث فجأة:

– أأعجبك أنا؟

أجابها مبتسمًا بمكر:

– لا... أعجبني إليزابيث.

ضربته ضربةً سريعةً على بطنه جعلته يتألم وهو يضحك، وكاد الفستان الذي يستقر بين يديه أن يقع من شدة الضحك.

– يا عشاق، هذه ليست غرفتكم الخاصة!

قالتها أنا وهي مقبلةٌ عليهما بوجهٍ متجهمٍ وصرامة.

نظر لها غيث بعدم اكتراث وتركها منصرفًا، بينما عادت ريم إلى القاعة ممثلةً ضجرًا، تحاول أن تخفي ما يعتمل في صدرها.

طرق الباب عدة طرقات حتى أُذن له بالدخول.

ولج الغرفة فكانت، كعادتها، جالسةً أمام المرأة. لم تلتفت إليه، واكتفت بأن نظرت إليه من خلال انعكاسها قائلة:

— تأخرت كثيرًا... الضيف على وشك الوصول.

اقترب غيث خطوةً، وفي صوته فضولٌ لم يستطع كبحه:

— أثارني الفضول لأعرف من هو هذا الضيف؟

أطلقت ابتسامةً قصيرةً سرعان ما انطفأت، وقالت وهي تشير بيدها نحو السرير:

— أمم... يا فضولي، ضع الفستان هناك.

ظل واقفًا مكانه وأعاد السؤال بنبرة ملحّة:

— ألن تخبريني؟

حينها استدارت بكاملها نحوه، وفي عينيها صرامة، وهي ملتزمة الصمت.

فمضى نحو السرير لينفذ ما أمرته به، ووضع الفستان فوق الأغذية المخملية، لكن بصره وقع على ما بجانب السرير.

فسأل مسرعًا:

— ما هذه يا جميلة؟

نظرت إليزابيث حيث أشار، ثم رفعت بصرها نحوه قائلة بنبرة هادئة غير مكرثة:

— إنها آلة عزف.

اقترب منها عدة خطوات وقال منبهراً:

— تبدو مميزة للغاية.

– هي كذلك بالفعل.

صمتت لبرهةٍ مفكرة، ثم قالت:

– بما أن ما زال أمامي وقت، دعني أعلمك العزف عليها.

وأردفت وهي تنهض ذاهبةً باتجاه الآلة:

– اذهب وأحضر وعاءً به ماء.

تعجب غيث من طلبها، ولكنه أسرع إلى المطبخ وعاد بما طلبت، فوضع الوعاء بقربها.

كانت في تلك اللحظة قد جرّت الآلة الزجاجية إلى منتصف الغرفة، والستائر نصف مغلقة، فأضافت شعوراً مهيباً قوياً في نفس غيث.

جلست بثباتٍ أمام الآلة، وضعت قدمها في الدواسة المعدنية وضغطت برفق، فبدأت الصحون البلورية تدور ببطء.

عَمَسَت الأخيرة أطراف أصابعها في وعاء الماء، ثم مدّت أناملها فوق الحواف الزجاجية المبتلة، حينها انبعثت النغمة... رخوة شفافة، تمتد في أرجاء الغرفة مثل خيط ضوءٍ أزرق يسبح في الفراغ.

كانت الحركة بسيطة؛ إصبع يمر على حافة دائرة، غير أن الصوت الخارج أعمق من أن تصدره مادة جامدة.

جلس غيث أمامها مأخوذاً بالصوت.

لم يكن ما يسمعه موسيقى بالمعنى المألوف، بل وشوشات تتسرب عبر العظام. في البداية خُيِّلَ إليه أن يسمع لحناً سماوياً رقيقاً كنسيم الفجر حين يمر فوق الحقول النائمة.

لكن شيئاً ما بدا يتلوّى في النغمة؛ صارت تطرق رأسه بإصرار
كالمطر المتواصل على نافذة منسية، حتى غرق وعيه بين الذبذبة
والدقّ.

تداخلت النغمات مع دقات قلبه حتى لم يعد يميز:

هل ما يسمعه يأتي من الآلة أم من صدره؟

وفجأة انبثقت في ذهنه صور وجوه بلا ملامح، وأصوات متقطعة
كصرخات قصيرة قادمة من قاع بعيد.

رأى طفولته التي لم يعشها، وذكرياته التي لم تحدث، كأن الزمن
يُعاد تأليفه على يد تلك الأطباق الزجاجية.

أدرك أن الموسيقى لم تكن تعزف له... بل عليه.

انقطع كل شيء فجأة، وسكن الهواء، عندما توقفت عن العزف
قائلةً بصوت هادئ:

— أبخير أنت؟

ظل غيث صامتاً طويلاً، كأن صوته تاه بين أصدااء تلك النغمة
الأخيرة، حتى أعادت سؤالها، فأجابها بلسانٍ مثقل:

— بخير... أظنني بخير.

نهضت إليزابيث ببطءٍ وسارت نحو خزانة صغيرة، أحضرت
منها كأس ماء وقدمته له.

شرب بنهمٍ شديد، كأن عطشاً قديماً كان يسكن صدره منذ قرون،
حتى ابتسمت قائلة:

— على رفقي يا رجل!

وضع الكأس على المنضدة ومسح فمه بكمّهِ، ثم قال بصوتٍ خافت:

— ما هذه؟

— الهارمونيكّا.

تأملها غيث طويلاً، ثم همس:

— هذه ليست آلةٌ موسيقية... إنها خدعةٌ على العقول البشرية.

انعقد حاجباها وقالت بنبرةٍ مستنكرةٍ متغطرة:

— وما أدراك أنت بالفن؟

فارتد عليها صوته سريعاً كالسهم:

— وما أدراكِ أنتِ بالطب؟

سكن المكان لحظةً طويلة. نظرت إليه إليزابيث، ثم انفجرت ضاحكةً بسخريةٍ باردة قائلة:

— تركنا لك الطب والفن أيها الأبله... اغرب عن وجهي، وإياك أن تذكر ما حدث اليوم.

أوماً لها برأسه وغادر الغرفة بخطواتٍ ثقيلةٍ متخطبة، وفي رأسه عاصفةٌ من الأسئلة والخوف والاكتشاف.

— ضعي الورد هنا... لا، لا، هنا بجوار النافذة!

قالتها أنا وهي تشير بيدها بعجلة، وكانت القاعة تضج بخطوات الفتيات يتحركن بخفةٍ وتوترٍ في آنٍ واحد، يحملن الزهور والمباخر وأقمشة الحرير.

فجأةً دخل رسولُ الملك بصوتٍ مرتفع:

– الملك في الطريق!

عمّت الفوضى، كأنّ القاعة خلية نحلٍ ضُرِبَتْ بعصاً. أسرعت الفتيات بالخروج من القاعة ما إن انتهين، وأنا تصرخ من خلفهن:

– أسر عن! أسر عن، لا نريد أيّ خطأ اليوم!

وما هي إلا دقائق حتى خيم الصمت، وامتلأت القاعة بالجنود في صفوفٍ صارمةٍ، تلمع دروعهم تحت ضوء الثريات.

يحرصون المكان استعداداً لدخول الملك.

في هذه الأثناء خرجت إليزابيث متأنقة، ترتدي فستانها الجديد الذي صنّم خصيصاً لتلك المناسبة، يتدلّى قماشه الناعم كنسيم صيفيّ على بشرتها البيضاء.

مشّت بخطواتٍ واثقةٍ ثابتةٍ كأنها تعزف لحناً على أرض القلعة. كانت أنا وريم تتبعانها في صمتٍ مهيبٍ، ترتبان ذيل الفستان خلفها.

وما هي إلا دقائق حتى وقفت إليزابيث أمام القاعة الكبرى، أشارت أنا للحارس فانفتح الباب ببطء.

دخلت إليزابيث تستقبله بحماسٍ لا يليق بهيبتها، وهي تفتح ذراعيها:

– لا تعلم كم أنا سعيدة بقبولك دعوتي يا ماتياس يا عزيزي.

قطّب الملك حاجبيه وقال بنبرةٍ جافة:

– انتزعت الألقاب بغير حق.

تراجعت إليزابيث خطوةً إلى الوراء، وانحنت بخفةٍ مصطنعة:

– اعذرني جدًّا، ساقني الحماس إلى الخطيئة.

ابتسم ماتياس بسخريةٍ مرّة:

– وشيطانك أيضًا.

نظرت إليزابيث إلى الخدم محاولةً استعادة وقارها، ثم قالت ببرود:

– أرجو أن ينالني شرف جلوسك معي، نأكل أولاً ثم نتحدث.

رمقها ماتياس بنظرةٍ حادةٍ قبل أن يتبعها نحو المائدة.

تحرك الخدم في صمتٍ دقيق، وخرج الجميع عدا أنا التي اقتربت لتهمس في أذن إليزابيث، لكن قبل أن تنطق دوى صوت ماتياس يقول بحزم:

– اخرجي من هنا يا أنا.

أومأت أنا برأسها وخرجت بصمت.

قالت إليزابيث:

– اسمح لي أن أسأل ملكنا العظيم... كيف عرفت اسمها؟

ردّ بصرامةٍ وهو يطرق المائدة بإصبعه:

– كُلي طعامك في صمت.

قالت بابتسامةٍ متعمدة:

– من بعدكم، جلالتم.

قال ماتياس:

– لن أكل، أنهي طعامكِ لتتحدث.

وقفت إليزابيث في هدوءٍ فخم، وأخذت تتذوق من كل طبقٍ على المائدة لقمةً من هنا وقطرةً من هناك، ثم جلست مكانها وقالت وهي تمسح شفَتَيْها بالمنديل:

– إن كان به شيءٌ فسأكون قبلك.

نظر إليها طويلاً ثم قال بصوتٍ خافتٍ ينزف سخريةً:

– أعلم أنكِ لستِ بهذا الغباء.

نظرت إليه إليزابيث بنظرةٍ مكتومةٍ تخبئ غيظها، ثم أبعدت صحن الطعام من أمامها ببطء، ونادت الخدم الذين دخلوا في صمتٍ مهيب، وبدأوا برفع الصحن من على المائدة بأمرٍ منها.

ثم نهضت تهندل فستانها وتقول:

– يمكننا أن نجلس في الرّدهة إن سمحت جلالتك.

فأجابها بنبرةٍ باردة:

– ولم لا.

سبقها بخطواتٍ واسعة نحو الرّدهة، وجلست مقابله.

دخلت أنا تحمل العصائر والماء، وضعتها أمامهما بانحناءٍ وهي صامتة، ثم استأذنت وغادرت، ومعها بقية الخدم تحت نظرات إليزابيث.

وحلّ الصمت لحظة قبل أن تتقدّم إليزابيث بالكلام بصوتٍ ناعمٍ يختلط فيه الرقة بالحزم:

– واصلتني أنباءٌ متطايرةٌ بأنك مستاءٌ مني.

ابتسمت ابتسامة خفيفة تخفي قللاً حقيقياً خلف كبرياءٍ منضبط:

— ولا يمكنني أن أسمح بهذا أبداً.

— فقط أخبرني لم الاستياء؟

ثم تابعت متعمدة:

— أو مرني بعد ذلك بما تشاء وسأنفذ.

قال ماتياس بصرامة:

— انظري إليّ يا إليزابيث... لستُ أبله!

ارتبكت قليلاً ثم ردتّ مسرعةً محاولةً تهدئة الموج:

— حاشاً، لم أقصد أيّ إساءةٍ قط.

قال بنبرةٍ حادة:

— ماذا يحدث في القلعة؟

ترددت ثم تمتمت:

— عذراً، لم أفهم السؤال.

ارتفع صوته قليلاً وفي عينيه نذير خطر:

— ماذا يحدث في القلعة أيتها العاهرة؟

خففت بصرها وقالت بجمودٍ حذر:

— لا شيء، جلالتك.

زفر ماتياس بضجرٍ وقال بلهجةٍ تهديدية:

– وصلتني شكاوى كثيرةٌ عنكِ، عن تصرفاتكِ، وعن خدمكِ
أيضًا، ولست متفرِّغًا لهذه التفاهات.

صمت هنيئًا وأردف:

– أبوك كان من الرجال الذين لا يُعوِّضون، وزوجكِ أيضًا،
وصمتي عنكِ إنما هو تكريمٌ لهما، فلا تستغلي ذلك يا إليزابيث،
وأفريقي إلى نفسك قبل أن أضطر لاتخاذ أيِّ إجراء.

ثم أنهى حديثه بصرامةٍ حاسمةٍ قائلاً:

– انتهيت.

وما إن لفظ كلمته الأخيرة حتى وقف وغادر دون أن يلتفت.

تبعته إليزابيث بخطواتٍ مضطربةٍ تخفي اضطرابها بابتسامةٍ
رسميةٍ وقالت بصوتٍ مصطنعٍ الثبات:

– أشكرك جزيل الشكر لقبولك دعوتي.

لكنه مضى غيرٍ مُكثرٍ، تاركًا خلفه صدى سلطانه يتردد في
القاعة الفارغة.

– هايتها هنا يا غيث.

قالت جملتها وهي تحضر كاميرا التصوير التي جلبتها من
صندوق المعدات الخاص بها، بينما كان غيث يُنفذ مطلبها محرِّكًا
الهارمونيكا إلى منتصف الغرفة.

أضاءت ريم الكاميرا، وجّهزت العدسة، وبدأت التصوير بسرعةٍ
متوترة، بينما وقف غيث عند الباب يراقب الممر بعينٍ يقظة.

قال بصوتٍ خافتٍ يشوبه القلق:

– أسرع يا ريم إن كنت تريد أن نخرج من هنا أحياء.
ابتسمت ريم باضطراب وهي ترد دون أن ترفع عينيها عن
العدسة:

– قاربْتُ على الانتهاء، اذهب وأحضر كلَّ ما يمكن أن يفيدنا فيما
بعد.

صمت غيث لحظة، ومرت بباله صورةٌ كبيرٍ مفاجئ، فاستدار
واتجه إلى نهاية الغرفة حيث يوجد صندوقٌ في الزاوية، فتحه
بارتجاف... لكنه كان فارغاً.

تسارعت أنفاسه، والتفت إلى ريم صارخاً بصوتٍ مكتوم:

– ريم!

– ها؟

– هناك من يعلم أننا سنتواجد هنا.

ارتجفت يدها حتى كادت الكاميرا تسقط، وقالت بذعرٍ مكتوم:

– ماذا تقول؟!

اقترب منها بسرعةٍ وهمس بخشونةٍ حادة:

– أزيل الكاميرا الآن... بسرعة!

اندفعت ريم دون تفكير نحو الجهاز تفككه بعصبية، بينما هرع
غيث يعيد الهارمونيكا إلى مكانها في نهاية الغرفة.

بدأ وقع الخطوات يقترب شيئاً فشيئاً من الغرفة، فوقف غيث
متجمداً في مكانه لا يدري ما يفعل.

التفت إلى ريم بعينين مضطربتين وقال بصوتٍ خافتٍ مرتجف:

– سُنُقُتْل لا محالة.

هزّت رأسها بعصبية، واقتربت منه وهي تشدُّ على الكاميرا بين يديها تقول في توترٍ متلاحقٍ متقطع:

– لا... لا... لا!!!!!

ثم رفعتها فجأة وضربته بها على رأسه ضربةً مباغته.

تداعى جسده أمامها ولم يع ما حدث بعدها.

جلست ريم إلى جواره واحتضنته بشدة، فأحاطهما ضوءٌ ساطعٌ قوي حتى كاد يخرق الأبصار.

لم يدم سوى ثوانٍ معدودة ثم سكن كل شيءٍ تمامًا.

في الطابق العلوي كانت إيزابيث تحقق في الفراغ بعينين مذهولتين، ثم همست بصوتٍ مرتجفٍ متقطع:

– أُرِيتِ ما أُرِيتُ؟

قالتها وهي تنظر باتجاه غرفتها، وبخطواتٍ متسارعة تتبعها أنا التي لم تفارق الدهشة ملامحها.

فتحت إيزابيث الباب بعنف، لكن الغرفة كانت كما هي... ساكنةً خالية.

– نادِ الحراس ليفتشوا الغرفة حالًا!

وما هي إلا لحظات حتى امتلأت الغرفة بالحراس يتفقدون كل زاويةٍ بعناية، فلم يجدوا شيئاً مريباً.

دخلت إيزابيث وقد أثقل التعب جسدها، فساعدتها أنا على تبديل ملابسها، ثم اتجهت إلى فراشها وأطبقت الغطاء عليها.

غفت سريعًا، بينما ظلت أنا واقفة تحديق فيها بصمت، قبل أن تغادر الغرفة ببطء.

— ميشيل!

انتفض جسده فرعًا حين سمع صوتها تناديه، فرفع بصره ليجدها أمامه بملابس مهلهلة ممزقة، كأنها خرجت تَوًّا من معركة.

تجمّد لحظة قبل أن يندفع يحتضنها بشوق:

— لِمَ تأخّرت عني؟ انتظرت كثيرًا، اشتقتُ إليك.

لكنها لم تبادله العناق، بل أبعدته عنها بخطوةٍ حادة وحدقت في وجهه بعينين تملؤهما المرارة:

— كفى تمثيلاً يا ميشيل، سئمت أفعالك المتناقضة.

تراجع خطوة في ذهول، محاولاً فهم ما يجري، لكنها تابعت بصوتٍ حازمٍ مرتجف:

— غيث في غرفتي، يجب أن تسعفه، رأسه ينزف.

ساد الصمت لحظةً قصيرةً ثقيلةً كأن الزمن توقف، قبل أن يهرع ميشيل خارج الغرفة بخطواتٍ متسارعة ووجهه يكسوه الذهول والارتباك.

جلست ريم على طرف السرير، أنفاسها متقطعة، والإرهاق يثقل كتفيها، وهي تتابع بعينيها ميشيل يركض لغرفتها... لم تتبعه.

ظلت تحديق في الفراغ لحظة، ثم تحوّلت بعينيها إلى زاوية الغرفة، ونهضت ببطء واتجهت نحوها بخطواتٍ ثابتة.

أمسكت الهاتف بيدٍ مرتجفة وضغطت على رقمٍ محفوظ، وما إن جاءها الرد حتى قالت بصوتٍ مبحوح:

– لقد عدنا.

لم يمض سوى بضع ساعات حتى توالى الطُّرقات على الباب.
فتح ميشيل، فدخلت الزائرة بخطى حادة، بينما خرجت ريم من
غرفتها بوجه عابس بعد أن بدلت ملابسها بفستان قديم الطراز
يشبه الذي كانت ترتديه قبله، وبلل الماء شعرها.

قالت بسخرية لازعة:

– تأخّرت يا جيرمين، كنتُ أظن أنني سأجذك فور إنهاء المكالمات.
لم تكذ تنهي عبارتها حتى صفعتها جيرمين بقوة جعلت الهواء في
الغرفة يتيبس، وتجمّد ميشيل مكانه.

وقالت بعينين تقدحان غضبًا:

– لم يكن هذا كلامك لي.

ثم التفتت إلى ميشيل وقد غلظ صوتها بالعصبية:

– ولا كلام والدك اللعين.

أردفت قائلة:

– وثقتُ بكم! صدّقتك يا ريم عندما قلت إنه سيعود سالمًا... ظننتُ
أنك ستحمينه، لكنك الشر بعينه، فمِمَّ ستحمينه إذًا؟!

اقترب ميشيل بخطوات حذرة يحاول تهدئتها:

– ما حدث قد حدث يا جيرمين، لقد أسعفناه، وهو الآن بخير.

لم تجبه، وتجاوزته بخطوات بطيئة واتجهت نحو الغرفة.

وقفت أمام السرير تنتظر إليه بمرارة، وهو راقد أمامها، أنبوب
المحلول في ذراعه، وجهاز النبض يومض بضوء أخضر خافت.

مدّت يدها ولمست وجهه المُرْتخي، وهمست وهي تبكي:
– سامحني... سامحني، لم أقصد أن أتركك وحدك.
قالت ريم ببرود قاتل، وعيناها تراقبان جيرمين التي شهقت في وجهها:
– لن يسمعك، وضع أبي منوّمًا في المحلول.
هتفت جيرمين بصوت مبوح يغلي بالانفعال:
– لم؟! ألا يكفي ما فعلته؟!
فأجابتها ريم ببرود أشد من الثلج:
– لم تنته مهمتنا بعد، سنعود الآن، وفي صالحك ألا يعلم أنك هنا.
اعتذلت جيرمين في جلستها وقد علا صوتها بحدة مكتومة:
– وماذا بقي؟
قالت ريم بثقة قاتلة:
– أعطيت أبي الكاميرا، سيفرّغها... كل شيء فيها.
– أريد أن أطمئن عليه، قالتها جيرمين متوسّلة.
– اطمئنني، هو بخير معي.
اقتربت ريم بخُطًى وثقة، ودفعت جيرمين بعيدًا عنه بغلظة وهي تقول:
– صفعنني... وسأجعل لذلك حسابًا آخر.
لم تُمهّلها لحظة، واحتضنت غيث بشغف، وفي لحظة خاطفة انبثق حولهما ضوء أبيض حارق كأنه فجر من نار.

صرخت جبرمين ووقعت على الأرض تغطّي وجهها من شدّة
الوهج، ثم سكن كل شيء.

عمّ الصمت المكان، ولم يبقَ سوى صوت أنفاس متقطعة
وارتجاف الضوء الذي انطفأ تدريجيًا.

ركض ميشيل إلى داخل الغرفة على إثر الضوء وصرّاح
جبرمين، لكنه لم يجد أحدًا... كانت الغرفة فارغة.

نهضت إليزابيث من فراشها حين سمعت وقع خطوات خفيفة
تقترب.

فتحت عينيها نصف فتحة، فقالت أنا:

— أرسلت في طلبي؟ لم أتوقع أن تستيقظي في هذا التوقيت.

فقالت إليزابيث بصوت خافت لا يخلو من الإرهاق:

— كان رأسي مُثقلًا بالتفكير فيما حدث يا أنا.

اقتربت أنا بخطوات مترددة، وهي تضع يديها أمامها بخشوع
خفيف:

— وإلى ماذا توصلت؟

خفضت إليزابيث رأسها وقالت:

— لم أتوصل إلى شيء بعد.

تنهدت بملل خفيف ثم قالت بلهجة حازمة وهي تشير بيدها:

— اذهبي وأحضري الفتيات، أريد حمّامًا دافئًا.

تسرّرت أنا في مكانها وسألتها بدهشة لم تستطع إخفاءها:

— أنت متأكدة من هذا؟

رفعت إليزابيث نظرها إليها نظرة حادة، لم تقل فيها شيئاً، لكنها كانت كافية لتجعل أنا تتحني وتستدير لتغادر الغرفة.

وقبل أن تغلق الباب ارتفع صوت إليزابيث بنبرة هادئة:
— أنا...

توقفت أنا في موضعها والتفتت نحوها بعين متسائلة.
فخطت إليزابيث خارج الفراش وقالت وهي تصلح خصلات شعرها المتناثرة على كتفيها:

— أرسلني يوهانس إليّ قبل أن تأتي بالفتيات.
أومأت أنا برأسها وغادرت، بينما وقفت إليزابيث أمام المرأة تحدّق في وجهها بأسى.

توالى الطّرقات على الباب، وريم جالسة إلى جوار غيث تراقب تنفّسه الثقيل، تنتظر أن يفيق.

اضطربت أنفاسها ونهضت لتفتح الباب، فإذا بأنا تقف خلفه، وجهها مشدود وسبّابتها مرفوعة في وجهها، تصرخ:

— ما الذي تفعلانه هنا؟ أليس لكما من عمل يُلهيكما عن التسكّع؟
تمتمت ريم باضطراب:

— عذراً يا أنا، يوهانس مريض، لم أستطع تركه.

قالت أنا ببرود حاد:

— الكونتيسة إليزابيث تطلبه، أين هو؟

— ولماذا تطلبه؟

لم تجبها أنا، واكتفت بنظرة حادة.

فقلت ريم أخيرًا:

— إنه نائم.

دفعتها أنا بعصبية ودلفت إلى الغرفة صارخة:

— إذا سأوقظه بنفسي!

لكنها توقفت فجأة حين رأتَه جالسًا على السرير، يرمقها بعيون نصف مغمضة، وجهه شاحب ورأسه ملفوف بضمادة غريبة الشكل.

— ما هذا الذي على رأسك؟

أغمضت ريم عينيها في ضيق، وقد تذكرت أنها نسيت إخفاء الضمادة.

بينما رفع غيث يده يتحسسها دون فهم، قالت محاولة التبرير:

— إنها قطعة من فستاني الأبيض، جرح يوهانس ولم أجد ضمادات هنا.

ثم مالت نحوه، تضع كفها على وجهه برفق:

— يوهانس، إليزابيث أرسلت في طلبك.

نظر لها باشمئزاز خافت، وقد عاد إلى ذهنه آخر مشهد قبل فقدانه الوعي، لكنه لم ينطق، وأدار نظره في أرجاء الغرفة بتعجب.

— يوهانس.

نادته أنا بصوت آمر، فأجابها مضطربًا:

— حسنًا.

نهض ببطء وهو يجزّ قدميه في صمت، ونزع الضمادة بعصبية، ولحق بأنا التي سبقته بخطوات واسعة، إلى أن تركته في منتصف الممر وهي تقول بنبرة أمرّة:

— اذهب إلى الكونتيسة ريثما أحضر الفتيات وألحق بك.

نظر إليها غيث، وقد ارتسمت على ملامحه حيرة لم يُخفها، ثم أوماً برأسه صامتاً، ومضى بخطوات بطيئة نحو الغرفة، يجزّ خلفه تعب جسده وثقل الأسئلة التي تزدحم في رأسه.

— حين سلّمني أحد جنود الملك تلك الورقة، لم أستطع أن أصدق الأمر، ظننته اختباراً من إليزابيث لتقيس مدى وفائي لها.

قالتها ريم وهي مقبلة عليه، وأردفت:

— تحياتي باللاتين، ثرزو.

نظر إليها مبتسماً، وقال وهو يعتدل في جلسته:

— من بين أبحاثي ظهرت فجأة بلا ماضٍ واضح، أنتِ وزوجك الذي صار في ليلة وضحاها زائراً دائماً لغرفة الكونتيسة.

صمت لحظة، ثم أشار نحو المائدة قائلاً:

— تفضّلي بالجلوس يا جين.

تقدمت ريم بخطوات مترددة، وابتسامة هادئة تخفي خلفها قلماً متصاعداً.

كانت عيناها تتجولان في أرجاء الغرفة الفسيحة، تتأمل الأثاث المصنوع والمطلّي بالنحاس الخالص، والديكور البسيط الذي يعكس ذوقاً رفيعاً لا يخلو من التواضع.

قطع تفكيرها صوته وهو يقول ببرود محسوب:

– من خلال مراقبتي، علمت أنك وضعت شيئاً في الطعام ذلك اليوم.

ابتلعت ريم ريقها وارتعشت أناملها، لكن نبرته التالية جاءت أكثر ليناً:

– لا تقلقي، فليس هذا سبب استدعائي لك، بل هو ما جعلني أختارك وأدرك أنك ستكونين وفيّة لي.

ثم مال قليلاً متأملاً وجهها بعينه الحادّتين، وقال بابتسامة مأكرة:

– أليس كذلك يا ريم؟

تجمّدت الكلمات على شفّتيها، وباع لسانها خوف، وامتلات عيناها بالدموع التي لم تجد طريقها للسقوط.

قالت بصوت مرتجف:

– من ريم يا بالاتين؟

ضحك ضحكة عالية قصيرة تردد صداها في الجدران، ثم قال بسخرية متهكّمة:

– لا يهم، يكفي هذا اليوم، ستأتي الخادمة إليك وتعلمي وظيفتك.

سرّرت بلقائك يا جين.

أنهى عبارته ونهض من مكانه متجهاً نحو الباب، وقبل أن يغادر التفت إليها متسائلاً بنبرة لاذعة تنضح فضولاً:

– كدت أن أنسى، كيف وصلت إلى هنا والخدم ممنوعون من مغادرة القلعة والحراسة مشددة؟

رفعت ريم رأسها بثقة قائلة:

— تلك طريقتي يا بالاتين تُرزو.

رمقها بابتسامة باهتة تشي بالإعجاب، ثم مضى تاركًا خلفه سكونًا ثقيلًا لا يكسره سوى صدى أنفاسها المرتبكة.

طرق الباب ثلاث طرقات خفيفة، فأناه صوتها هادئًا:

— ادخل يا يوهانس.

دفع الباب ببطء ودخل.

كان المكان غارقًا في سكون عطري مهيب، يغشاه بخار خفيف يتصاعد من حوض الاستحمام الكبير، وتفوح في الأرجاء رائحة الأعشاب الدافئة الممتزجة بالمسك والعنبر.

كانت إليزابيث تقف أمام المرأة، شعرها منسدل على كتفيها كستار من الليل، وجهها شاحب كضوء القمر، لكنه ما زال متماسكًا في كبريائه.

رفعت عينيها إليه عبر انعكاس المرأة وقالت دون أن تلتفت:

— تبدو مرهقًا أكثر من المعتاد.

حدّق فيها لحظة كأن كلماته عالقة في صدره، ثم قال بهدوء متهدّج:

— كنت مريضًا، لكنني الآن بخير.

استدارت إليه قليلاً قائلة:

— حسنًا، تذكّر ما علّمتك إياه على الهارمونيكا الزجاجية؟

أجاب بخفوت:

— بلى.

اقتربت منه ببطء وهي تقول بنبرة تحذيرية:

— قبل أي شيء، ما سيحدث هنا إن علم به أحد في الخارج، فلن
نعش لنعرف ما سيحدث لزوجتك.

قال بهدوء يشي باللامبالاة:

— حسنًا.

ابتسمت ابتسامة باردة وقالت:

— إذا لندخل في صُلب الموضوع، عزيزي يوهانس، أريدك أن
تعزف لي بينما أخذ حمامًا دافئًا، وكل ما تراه تنساه.

تردد لحظة وقال بنبرة متحفظة:

— ألا تستطيع أنا العزف؟

اقتربت أكثر حتى كاد أن يسمع أنفاسها الممزوجة بعطر الورد
والمسك، وقالت بصوت منخفض لكنه حازم:

— أحببت وجودك، فاخترتك أنت.

ثم أشارت إلى الهارمونيكا وقالت بلهجة قاطعة لا تحتل النقاش:

— اجلس.

سحب غيث الهارمونيكا إلى منتصف الغرفة، جالسًا أمامها
استعدادًا للعزف، لكن قبل أن يضع أنامله في الماء، سُمع طرق
خفيف على الباب، ودخلت أنا ترافقها مجموعة من الفتيات. رمقته

أنا بنظرة حانقة، ثم التفتت إلى إليزابيث الواقفة أمامها وقالت بنبرة لا تخلو من الاستكثار:

— أهو من سيعزف؟

ابتسمت إليزابيث ووضعت كفّها برفق مصطنع على وجه أنا وقالت بهدوء:

— أردت فقط أن أمنحك هدنة صغيرة لترتاحي يا عزيزتي.

خفضت أنا رأسها والتزمت الصمت.

تركتها إليزابيث وتقدمت بين الفتيات تتفحص وجوههن حتى وقفت أمام إحداهن وسألتهما:

— أتودين مساعدتي في الاستحمام يا جميلة؟

أجابت الفتاة بخضوع ظاهر:

— بالطبع يا كونتيسة، ومن منا يرفض لك طلباً؟

ابتسمت إليزابيث بلطف قائلة:

— كم أنت مطيعة.

ثم أشارت إلى البقية بيد خفيفة فغادرن الغرفة في صمت مطبق.

قالت إليزابيث وهي تتراجع إلى كرسيها:

— هيا يا أنا.

التفتت نحو غيث مبتسمة وقالت بنبرة سخرية:

— يا لحظ جين البلهاء بك.

اكتفى غيث بابتسامة باهتة خجولة، يخفي وراءها اضطراباً لم يجد يوماً التعبير عنه.

مرت دقائق ثقيلة في صمت مهيب لم يُسمع فيه سوى خريير الماء خلف باب غرفة الاستحمام. إليزابيث جالسة أمامه تنظر إلى الفراغ، حتى خرجت أنا بعد برهة قصيرة تتقدم بخطوات هادئة نحو إليزابيث. تلاقت نظراتهما لحظة خاطفة، قبل أن تقول إليزابيث بنبرة أمرة هادئة:

— ابدأ العزف.

وما إن نطقت كلمتها الأخيرة حتى نهضت بخفة واتجهت مع أنا نحو غرفة الاستحمام، فيما أخذ غيث يتهيأ للعزف بأنامل مرتجفة لا يعلم إن كانت ترتجف من البرد أم من التوتر.

صفوف الأكواب الزجاجية تدور ببطء، وأصابعه مبلة بالماء.

حين لمس أول كأس، ارتجّ الجلد الدافئ لأطراف أنامله إحساساً بارداً زجاجياً.

الصوت خرج رفيعاً، خافتاً في البداية، ثم بدأ يهتز في العظام قبل الأذن.

اهتزت عضلات وجهه الدقيقة مع الذبذبة، وارتفع معدل تنفسه قليلاً.

الاهتزاز تسلّل من أطراف أصابعه إلى ذراعيه، ثم إلى صدره، كأن الجسد كله أصبح غرفة صدى.

شعر بحرارة طفيفة في أطرافه من الاحتكاك، وبرودة الماء توازنها في اللحظة ذاتها.

كل صوت جديد يولده احتكاك الجلد بالزجاج كان يمر في جسده كنبضة حيّة، لا موسيقى يسمعها فقط، بل يشعر بها تتكوّن في أنسجته.

قطع انسجامه بالعزف صوت ضوضاء مفاجئ قادم من خلف باب الغرفة، تلاه سيل خفيف من الدماء تسرب على الأرضية الخشبية الباردة. رمش بعينه متوهّمًا أنه يهذي، وأن ما يراه محض أثر للدوار الذي تركته إصابته في رأسه.

خرجت أنا بعد لحظات تمسك بممسحة في يدها، تزيل بها خط الدم ببرود غير مكترثة بوجوده.

نهض غيث مذعورًا وقال:

— ماذا حدث؟ دم من هذا؟

نظرت إليه أنا بعينين خاويتين قائلة ببرود:

— ليس من شأنك. أكمل العزف حتى تخرج الكونتيسة، ولا تتوقف أبدًا.

تجمد في مكانه للحظات، ثم جلس مجبرًا، وعقله يغلي بالأسئلة والخيالات السوداء تتراقص أمامه.

لم يستطع الاحتمال أكثر، فاقترب من باب الغرفة يبحث بعين يائسة عن شق أو ثقب يسمح له بالرؤية. وبعد محاولات متوترة أبصر ما جعله فاغرًا فاه.

إليزابيث جالسة في حوض مملوء بالدماء، والخادمة ممددة على الأرض، زرقاء الوجه والجسد دون أثر جرح واحد.

تحركت أنا أمام الثقب فجأة، فارتدّ غيث مذعورًا يلهث واندفع نحو الباب محاولًا الهرب، لكن صوتها البارد أوقفه في مكانه:

— إلى أين؟

تلعثم قائلًا:

— يبدو أن الكونتيسة ستطيل، سأذهب لأرى عملي.

ابتسمت أنا ابتسامة مشوبة بالسخرية قائلة:

— تعال واجلس، هذا هو عملك.

عاد غيث وقد سكن الخوف قلبه.

لم تمض سوى ثوانٍ حتى خرجت إليزابيث. بدا عليها وكأنها عادت فتاة في مقتبل حياتها، تريثت بخفة، فصدمه التغير الرهيب الذي طرأ عليها.

نظرت إليه مبتسمة ثم التفتت إلى أنا قائلة بصوت هادئ أمر:

— أخبري زوجته أنه سيبيت اليوم في العمل حتى لا تنتظره.

قاطعها غيث معترضًا:

— أي عمل هذا؟!

نظرت إليه إليزابيث بحدة لم تخلُ من برودة قائلة:

— ستعرف فيما بعد، هيا يا أنا.

خرجت أنا وجلست إليزابيث تفرد شعرها على ظهرها، ثم ألقت بصرها ناحية غيث وقالت:

— تحت الفراش ستجد عدة أكياس كبيرة، أحضرها لي.

نَقَذَ غَيْثُ أَمْرُهَا وَاقِفًا أَمَامَهَا مُنْتَظِرًا مَا سَتَطْلُبُهُ.

استدارت إليزابيث فجأة وطرحت سؤالاً بسخرية مبتسمة:

— أبدو جميلة؟

نظر إليها غيث باشمئزاز مكتوم، وهمس:

— أمم...

قاطعته بلا مبالاة باردة:

— لا يهم رأيك على كل حال، اذهب إلى غرفة الاستحمام، ستجد هناك فتاة على الأرض، أدخلها في خمسة أكياس من هذه.

— خمسة؟

— نعم، خمسة تكفي.

قال غيث مرتابًا:

— قَتَلْتُهَا؟

نظرت إليه إليزابيث بغضب متقاطر وقالت صارخة:

— أنا لا أقتل أحدًا، ولا تجرؤ على أن تقول لي ذلك مجددًا... هي ماتت ضعفًا.

ثم أردفت بصرامة:

— وكما قلت لك، كل ما تراه لا تتكلم عنه ولا حتى إلى ذاتك.

تركها غيث ودخل الغرفة بتوجس.

كانت الفتاة ممددة على الأرض كما رآها من قبل، فتقدم إليها على أمل أن يكون هناك نبض.

أمضى دقيقة يفتش عن نبض أو نفس، ولكن بلا جدوى، ومع ذلك كانت ملامحها تقربه من صورة ما...

جبرمين!

تلثم اسمها على شفثيه من هول الفرع، فأمسك وجهها بين كفيه محاولاً التأكد.

اجتاحه زعر أعمق فارتدّ إلى الوراء محاصرًا قدميه بصدرة، يشهق بارتجاف، ثم نظر إليها ثانية.

لم تكن هي.

صفع رأسه بكفيه، لعن هذيانه المتصاعد، وظل يردد كلمات قاسية على فكره.

وبعد عناء طويل نجح في لف الفتاة داخل الأكياس، ثم جلس بجانبها متقوسًا إذعائًا لإرهاق لم يزل يقض مضجعه.

— يوهانس.

كان صوتها ثابتًا، باردًا، يتردد صداه في أنحاء الغرفة.

نادثه أكثر من مرة حتى خرج يجرّ أنفاسه بتثاقل، يرى ماذا تريد هذه المرة.

وجدها جالسة كما تركها، وعلى وجهها تلك الابتسامة التي لا تُفسّر.

كانت أنا تقف أمامها، نظراتها متصلبة كالجليد.

قالت إليزابيث بهدوء:

— أنا تكرّمت وستساعدك في حمل الفتاة ودفنها.

ثار غيث والدم يغلي في عروقه، واقترب منها بخطوات غاضبة،
أمسك شعرها فجذبها نحوه صارخاً:

— يا ملعونة، ستعاقبين على ما فعلت؟

لكن أنا هجمت عليه في لحظة، كانت تملك قوة خمسين رجلاً قوياً،
فأحكمت قبضتها على ذراعيه كأنها حديد ساخن.

عدّلت إلبزابيث خصلات شعرها بهدوء مصطنع، وقالت بصوت
منخفض يخترق الأعصاب:

— ما فعلته الآن لن يمر على خير، نفّذ ما قلته.

ثم التفتت نحو أنا وسألتها:

— أين جين؟

أجابت أنا بجمود:

— في غرفة الانتظار تحت الحراسة، بانتظار الأوامر.

برد الدم في عروق غيث، شعر بأن الأرض تسحب أنفاسه معها،
تمتم بسباب ولعنات مكتومة، وقال بعد برهة:

— لن أتحرك قبل أن أعلم بكل شيء.

ابتسمت إلبزابيث بهدوء يثير القشعريرة، ثم قالت:

— همم... عزيزي يوهانس، الفضول ليس مفيداً للصحة.

لم يردّ واكتفى بابتسامة سخرية، فتابع ببرود:

— لن أخبرك بشيء الآن، كل شيء في وقته.

— عليك أن تسعد، فقد اخترتك أنت من بين الجميع.

صمت غيث، بينما دفعت أنا كتفه تأمره دون كلام بالتحرك نحو الغرفة.

ساعدته في رفع الفتاة على ظهره، وانطلقت تسير أمامه بخطوات ثابتة لا تكثر أن يراهم أي أحد.

كان غيث يسير خلفها متثاقلاً، يسبّ حظّه بصوت خافت، يتساءل كيف تحوّل من طبيب إلى شريك في جريمة قتل.

توقّفت أنا عند أطراف الحديقة الخلفية حيث تتشابك الأغصان وتتدلّى منها ظلال الليل، وقالت باقتضاب:

— هنا.

أنزل غيث الفتاة برفق على الأرض، فركعت أنا وبدأت تبعد التراب بيديها حتى انكشف باب حديدي صغير يختبئ تحت العشب، تتدلّى عليه سلسلة وقفل صدئ.

تجمّد غيث في مكانه ينظر بدهشة لا يصدّقها. كيف لم ير أحد هذا الباب من قبل؟ أم تراهم رأوه، لكن لم يجرؤ أحد على الحديث؟!

أخرجت أنا مفتاحاً صغيراً من دُلاية تتدلّى عند خصرها، وبدأت بفكّ السلاسل بتأنٍ وحذر حتى انفرج القفل وأصدر صريراً حاداً اخترق الصمت.

وما إن أزاحت آخر حلقة معدنية حتى انبعث من جوف الباب ضوء ساطع كأنه برق سكّب من السماء.

رفع أنا وغيث أيديهما يغطّيان أعينهما من شدة الوهج، وانكمشا لحظة قبل أن يخفت النور شيئاً فشيئاً.

وحين تجرّأ على النظر شهقاً في وقت واحد.

كانت ريم واقفة أمامهما، كأنها خرجت من رحم الضوء ذاته، من العدم.

تجمّد غيث، وتاهت الكلمات في فمه. أراد أن يبرّر، أن يقول لها إنه لا شأن له بالفتاة، وأنه هنا من أجلها، من أجل أن يحميها منهم...

أقبلت ريم على أنا وهي تتلقّت حولها بعينين مرتجفتين قائلة بلهث: – إنهم آتون، وصلت الأخبار إلى إليزابيث.

ثم أمسكت بيد غيث قائلة:

– لنختبئ حتى ينتهوا!

انعكست على وجه أنا علامات الفزع، وراحت تتلقّت حولها.

جذب غيث ريم نحوه هامساً:

– ما الذي يجري؟ من القادم؟

قالت بصوت مضطرب:

– جنود ماتياس...

قطع كلامها شهقتها بصوت مختنق، وارتدت إلى الخلف مترنّحة، إذ اخترق جسدها سهم أطلقه أحد الحراس ليستقر في ظهرها.

لم يكد غيث يعي ما جرى حتى قبضت أنا على ذراعه وسحبته بعنف، يركضان معاً في ممرات القلعة، بينما صرخاته تتعالى خلفها:

– توقّفي يا أنا! ريم... تركت ريم!

لكنها لم تلتفت. كانت تركض بهوس حتى بدأت السهام تنهمر من خلف الأسوار، تصيب الحراس الواقفين على الأبراج واحدًا تلو الآخر.

توقفت تلتقط أنفاسها وهي مغمورة بالسعادة، تنظر إلى السماء:

— لقد أتوا يا غيث، أتوا أخيرًا.

رمقها غيث بذهول وقال:

— غيث؟!!

أفلتت يده ومضت في طريق آخر، تاركة إياه دون إجابة.

استدار غيث راكضًا حيث سقطت، يلهث باسمها بين الممرات كمن يبحث عن روحه.

توقف يحرق في الأرض. المكان خالٍ، لا أثر لجسدها.

تراجع خطوتين يلتفت حوله بجنون، وفجأة تسلّل إلى أذنه صوت أنثوي مبوح، يخرج من العدم مرتجفًا كأنفاس تحتضر:

— غيث، ساعدني.

تجمّد الدم في عروقه. اتّبع الصوت بخطوات مرتجفة، والصوت يزداد وضوحًا... قادم من الكيس الذي يحوي جثة الفتاة!

شهق غيث متراجعًا وهمس بصوت مبوح بين الرجاء والجنون:

— لا... لا، لقد جننت... يا الله، ساعدني أن أفيق.

ثم سقط على ركبتيه، والهوسات تلتف حول رأسه كدوّامة. أنفاسه تتلاحق، والعرق يمتزج برائحة الدم والتراب.

السهم ما زالت تتطاير فوقه، تصطدم بالجدران وتتناثر. وفي خضم هذا الجنون انغرس في ذهنه وجه إليزابيث، وقبل أن يتحرك شعر بشيء يلتف حول قدمه.

خفض بصره في دعر ليرى الكيس قد تمرّق من عند كتف الفتاة، وخرجت منه ذراعها تمسك بساقه بقوة يائسة.

صرخ بارتباك وسحب قدمه بعنف، ويومض في رأسه صور كثيرة متداخلة:

إليزابيث في الحمام المملّخ بالدماء، ريم تسقط مصابة، أنا تضحك، الفتاة الميتة تناديه... كلهم يتكاثرون في ذاكرته حتى كاد يُجَنّ.

ركض داخل القلعة مجدّداً، والأصوات تصمّ أذنيه: صراخ، حريق، وقع أقدام جنود يقتتلون في الممرات... تحوّلت القلعة إلى فوضى من الدم والجثث الملقاة في الممرات.

حين وصل إلى باب غرفة إليزابيث، فتحه بعنف حتى ارتدّ على الجدار.

كانت إليزابيث جالسة على الأريكة المخملية كما تركها، وجهها هادئ كمن يشاهد مسرحية لا تخصّه، وعلى الأرض عند قدميها ريم تنزف في صمت، والدم يمتد تحتها كظل أحمر بينتلها.

رفعت إليزابيث عينيها نحوه ببرود قائلة بصوت ناعم كأن شيئاً لم يحدث:

– تأخرت في فهم قوانين القلعة.

ركض غيث نحو ريم غير مبالٍ بوجود إليزابيث أو بما قالت.
احتوى وجهها بين كفيه المرتجفتين، وصوته يتهدّج كمن يقاوم
انهيار العالم حوله:

— لا تتركيني... لقد وعدتني أننا سنعود حين تنتهي مهمتنا،
تماسكي أرجوك.

كانت نظراتها تترنّح بين الوعي والغيبوبة. شفتاها ترتعشان،
تهمس محاولة قول شيء ما.

في تلك اللحظة تحركت إليزابيث بخطى هادئة نحو المرأة، ومدّت
يدها وسحبت سيفاً طويلاً.

انكششت ملامح ريم لكنها تماسكت.

قالت إليزابيث ببرود:

— قلت لك يا يوهانس إن الأمر لن يمرّ.

رفعت إليزابيث السيف، وحين هوت به بكل ما في يدها من قسوة،
أحاطهما ضوء أبيض شديد كأن السماء نفسها انفجرت في لحظة.

صرخت إليزابيث وتراجعت ممسكة عينيها، وفي ثوانٍ معدودة
اختفيا، كأن الأرض ابتلعتهما.

وقفت إليزابيث تحدّق في الفراغ الذي خلفاه، تتنفس ببطء، والسيف
في يدها ما زال يقطر من الضوء والدم.

فُتح باب غرفة الاستحمام أمامها، فرحبت مبتسمة:

— عزيزي ماتياس، اشتقت إليك.

— نبضها يتوقف، تحركوا! لم أنتم واقفون؟!

صراخ سفيان شق المعمل، وارتجّ صده بين الأجهزة وصفارات الإنذار.

تسارعت الأقدام وتزاحم الأطباء حول ريم، التي كانت مستلقية داخل صندوق زجاجي مقاوم للكسر. تتوهج حولها أضواء زرقاء خافتة، وقناع التنفس يغطي وجهها، وأسلاك كثيرة متلاصقة في رأسها متصلة بشاشة كبيرة يظهر فيها ما تعيشه ريم وكأنه فيلم يُعرض. وعلى الشاشة الملاصقة للصندوق خطٌ مستقيم يقطع الصمت بصفير طويل حاد.

مد أحد الأطباء يده محاولاً إعادة النبض، وآخر يضبط معدل الهواء، وسفيان يصرخ بعينين يغمرهما الهلع واليأس، وميشيل بجانبه في ذهول دون نطق:

— أزيدوا الجهد الكهربائي، لا تتركوها!

في الجهة الأخرى من الغرفة كان هناك صندوقان آخران. يرقد في أحدهما جيرمين زرقاء الوجه كأنها جثة ماتت منذ عدة أيام.

والآخر يرقد بداخله غيث، هادئ الملامح بوجه باهت، أنابيب دقيقة داخل ذراعه، وأجهزة غريبة تحيط بجسده تُصدر وميضاً متقطعاً.

اقترب أحد الأطباء من سفيان قائلاً بصوت مرتجف:

— القلب لا يستجيب... لا نبض.

تجمّد سفيان في مكانه، وعينه تنقّلان بين الصناديق الثلاثة.

ساد صمت مفاجئ، تلاه صفير متقطع من الأجهزة، وارتجّت الصناديق الثلاثة.

فتح غيث عينيه فجأة، شهق كمن خرج لتوّه من بطن الزمن، ونهض صارخاً صرخة هزّت الغرفة، انفجرت معها جدران الصندوق الزجاجي في وميض أزرق هائل. تناثرت الشظايا والهواء كعاصفة من الزجاج والضوء، ومعهما يد غيث... مقطوعة.

تجمّد الجميع في أماكنهم وسط صراخ غيث، وهو يقبض على ذراعه المبتورة، والدماء تنفجر منها كالنافورة لا تنتهي. ركض سفيان نحوه ووجهه شاحب، وعيناه تتسعان من الهلع، بينما يهتف بأعلى صوته:

– قطن، قطن.

اندفع الأطباء نحوه كأمواج مذعورة، يحاولون كبخ سيل الدماء الذي لا يتوقف، وسفيان يضغط على الذراع المبتورة بكل قوته، يصرخ فوق صوت الأجهزة التي عادت تُصدر صفيها الجنوني:

– تمسّك يا غيث، لا تفقد الوعي... تمسّك!

في قاعة محاضرات كبرى دخل سفيان وبجانبه والداه، وهم في كامل تأنقهم.

على المنصة يقف ميشيل ببذلة سوداء، تعلو ملامحه مسحة حزن جعلته يبدو كمن حمل عمراً فوق عمره، وإلى جواره شاشة عملاقة تُعرض عليها صورة لأدمغة مضيئة ومخططات عصبية معقدة.

يسود الصمت العميق قبل أن يبدأ بالكلام بصوتٍ متهدّج:

– أيها السادة، إن ما أقدمه اليوم ليس مجرد طبيبٍ بارع في مجاله، بل عالم بلغ حدود الوعي ذاته. ويشرفني أنني كنتُ مُشرفاً

على هذا البحث العلمي، وهو محاولة لفهم ظاهرة تمسُّ جوهر الوعي الإنساني.

– تفضَّل أيها الطبيب سفيان.

تقدَّم سفيان بخطواتٍ واثقة يعانق ميشيل بحرارة، يربّت ميشيل على كتفه، ثم يعود إلى مقعده في صمت.

أخذ سفيان موضعه وبدأ الحديث بثقة قائلاً:

– الإسقاط النجمي، مصطلح طالما وُصِف بالوهم أو بالخرافة، لكنه اليوم يقف أمامكم كحقيقة قابلة للرصد، مثله مثل الحلم، أو الذاكرة، أو حتى الألم.

نظر إلى الشاشة خلفه، فتغيّرت الصورة لأدمغةٍ في نشاط كهربائي مكثف.

فأردف قائلاً:

– لقد قمنا بتحليل شهادات عشرين شخصاً خاضوا هذه التجربة دون أي خلل عصبيّ ظاهر، وكانت النتيجة مذهشة؛ جميعهم أكدوا أن ما رأوه أكثر واقعية من الواقع نفسه.

تقدَّم خطوتين إلى الأمام، وهو يجول ببصره بين الحضور:

– أما عن الأسباب العصبية، فقد تبَيَّن أن منطقة الوصل الصدغي الجداري هي المسؤولة عن دمج الإحساس بالجسد مع الرؤية والمكان. وعندما يختلّ هذا الدمج، ينفصل الوعي عن الجسد لحظةً وجيزة، فيحدث ما نسميه الإسقاط النجمي أو السولميرا.

وعاود نظره إلى الشاشة التي عُرضت عليها مشاهد لريم، وغيث، وجيرمين راقدين داخل الصناديق الزجاجية، تحيط بهم أجهزة الرصد.

وأردف بنبرة عالية:

— في مختبراتنا استطعنا أن نحفّز تلك الحالة صناعيًا باستخدام مؤثرات حسية متزامنة، وهذا يثبت أن التجربة قابلة للرصد، وأن تطول مدتها أيضًا. واستطعنا بالفعل مشاهدة ما يراه العقل أثناء السولميرا، كأننا نشاهد فيلمًا يُعرض على الشاشة.

بل إن إحدى الفتاتين استطاعت التقاط صور فوتوغرافية من زمنٍ آخر، على الرغم من أن جسدها موجود هنا في زمننا.

ثم نظر إلى لجنة العلماء أمامه قائلاً:

— مُرفق مع أوراق بحثي جميع الصور والأدلة.

وفي نهاية بحثي أقول إن تجربة السولميرا أو الإسقاط النجمي ليست خيالاً كما ظن الجميع، ولا معجزة مطلقة، بل هي حالة إنسانية تجمع العلم والروح في مشهدٍ واحد.

تعالت تصفيقات متقطعة وسط إعجابٍ كبير من اللجنة الحاكمة.

خرج سفيان وسط والديه بخطواتٍ واثقة، يحمل درع التكريم بيده اليمنى، متجهين إلى السيارة. فوقف سفيان قائلاً:

— اذهبا أنتما إلى المنزل، استعدّا للاحتفال، سأذهب لزيارة غيث.

نظرت إليه والدته نظرة طويلة، ثم ضحكت بسخرية وتركته دون أن تقول شيئاً.

فربت والدہ علی کتفہ قائلاً:

— کبرت والدتک وأصبحت خرفة.

ضحك سفيان دون أن يعلق.

فأردف والده:

— صلّ سلامي لغيث، ولا تتأخر علينا.

أوماً سفيان برأسه مبتسماً، وذهب والدہ يتبع والدته.

لم يمض سوى دقائق وكان قد وصل إلى المستشفى التي لم تكن تبعد عن قاعة المناقشات سوى بضعة أميال.

دخل مرتدياً معطفه الأبيض الطويل، والدرع لا يزال بيده كأنه لا يريد أن يفارقه.

تصافحه الممرضات والموظفون واحداً تلو الآخر، وتنهال عليه المباركات، وهو يهزُّ رأسه شاكراً، ويمضي بخطواتٍ سريعة نحو مكتب الاستقبال، يضع يده على المكتب:

— ما رقم غرفة الطبيب غيث؟

أجابته الموظفة بارتباك:

— في غرفة العزل، تدهورت حالته اليوم. استيقظ وهو يصرخ بهستيرية، خلايا العقل لديه تتلف كل يوم أكثر من ذي قبل.

تجمّد وجه سفيان للحظة، ثم تركها دون كلمة متجهّاً إلى نهاية الممر، حتى وصل إلى غرفة العزل.

وضع عدة طرقات ودخل.

كان غيث جالسًا على سريريه ممسكًا بيده المبتورة، عيناها شاخصتان إلى اللاشيء.

اقترب منه سفيان واحتضنه بحماسٍ مشوب بالشفقة.

بشّرهُ سفيان وهو في حضنه بخبر نجاح رسالته العلمية.

أبعده غيث متسائلًا باستهزاء:

– من ساعدك في هذا البحث يا سفيان؟

صمت سفيان برهة يفكر، ثم قال:

– لن أخفي عليك بعد الآن، فقد انتهى كل شيء.

ابتعد خطوتين ليتبين ردود أفعال غيث، وأردف:

– عرض عليّ ميشيل الموضوع، بما أن ابنته ريم كانت تملك هبة الإسقاط النجمي، فكان يعلم أنها ستكون مفتاح كل شيء.

– وكان هو مستفيدًا جدًّا عندما سيرفع اسمه أنه أشرف على بحث علمي كهذا، رغم فقدته لابنته.

وأردف بعد ثانية صمت:

– أمي حياة هي من نسل إليزابيث، هي التي أعطتني مقتنياتها التي ورثتها من العائلة. كانت مفاتيحك إلى ذلك الزمن، مثل الفستان الذي كانت ترتديه ريم طوال الوقت.

تراجع خطوتين إلى الخلف، وصوته يزداد برودًا:

– جيرمين كانت تحبك أكثر مما تعلم، فوافقت على مساعدتي عندما علمت أن هذا البحث سيُعطي من شأن زوجها العزيز.

– وعندما خافت عليك وأرادت أن تكون حولك، ماتت على يديك
عندما غلّقتها بالأكياس ولم تساعدنا عند استعانتها بك... لم تكن
تدري أنها زوجتك. عمّتك بصيرتك.

ظلّ غيث ينظر إليه بصدمةٍ مميتة، الدموع تختلط بالعرق
والذهول.

عدّل سفيان ياقة معطفه، ورفع الدرع في وجه غيث وهو يقول:

– وأنت الفضل الحقيقي يا غيث... أنت التجربة.

أنهى كلماته وخرج وأغلق الباب خلفه، وغيث في عالمٍ آخر.

استدار ليغادر، ولكن تجمّدت خطواته عندما رآها أمامه، شعرها
ينساب على كتفيها، سليمة كما كانت من قبل.

ابتسمت برقةٍ قائلة:

– مبارك يا سفيان.

وضعت يدها على صدره، وغلّفهما الضوء...

تمت